بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الّذى أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعلْ لهُ عِوجاً * قيِّماً لِيُنذرَ بأساً شديداً مِنْ لدُنْهُ ، و يُبشّرَ المؤمنينَ الذينَ يعملون الصّالحات أنّ لهمْ أجراً حسناً ، ما كثينَ فيهِ أبداً * ويُنذرَ الّذينَ قالوا اتّخذَ اللهُ ولداً * مالهمْ به مِنْ علمٍ ولا لآبائهمْ . كبُرتْ كلمةً تخرُجُ من أفواههمْ ، إنْ يقولون إلاّ كذباً * (١٨ : ٥١)

ألم . ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيه هُدًى لِلْمتّقينَ (٢ : ١) وإنْ كنتمْ فى ريبٍ ممّا نزّلْنا على عبدنا فأتوا بسُورةٍ من مثلهِ وادْعوا شُهداءكم مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقينَ * فإنْ لم تفعلوا ـ ولنْ تفعلوا ـ فاتّقوا النّارَ الّتى وقودُها النّاسُ والحجارةُ أُعدّتْ للكافرينَ (٢ : ٢٢ ، ٢٣)

الم . اللهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ الحىُّ القيُّومُ . نزّلَ عليك الكتابَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بينَ يديهِ . وأنزلَ التّوراةَ والإنجيلَ من قبلُ هُدًى للنّاس وأنزلَ الفُرقانَ (٣ : ١) هُوَ الذى أنزلَ عليك الكتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحكماتٌ هنّ أمُّ الكتاب وأُخَرُ مُتشابهات ، فأمّا الّذينَ فى قلوبهم زَيْغٌ فيتّبعون ما تشابهَ منهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله ، وما يعلم تأويلهُ إلا اللهُ ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا بهِ كلٌّ من عند ربّنا ، وما يذّكّرُ إلا أُولُوا الألبابِ (٣ : ٥)

أَلر . كتابٌ أُحكِمَتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خبير * أَنْ لا تَعْبُدوا إلا اللهَ ، إننى لكم منهُ نَذِيرٌ وَبشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِروا رَبَّكم ثُمَّ تُوبوا إليهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حسناً إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ويُؤتِ كلَّ ذِى فَضلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فإنى أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبيرٍ * إلى اللهِ مرْجِعُكم وهو على كلِّ شىءٍ قديرٌ (١١ : ١ — ٤)

أَلر . تلك آياتُ الكتاب المبين * إنا أَنزلْناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعلقون * نحن نَقُصُّ عليكَ أحسنَ القَصص بما أوحينا إليكَ هٰذا القرآنَ وَإِنْ كنتَ من قبلِهِ لَمِنَ الغافلينَ (١٢ : ١ — ٣) لقد كان فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولى الألْبابِ ، ما كان حديثاً يُفْتَرَى ، وَلٰكِنْ تصديقَ الذى بينَ يَدَيْهِ وتفصيلَ كلِّ شىءٍ وهُدًى ورحمةً لقومٍ يُؤْمِنونَ (١٢ : ١١١)

وكذٰلكَ أنزلنا إليكَ الكتاب ، فالَّذِينَ آتيناهُمُ الكتابَ يُؤمِنون به ، وَمِنْ هٰؤلاء مَنْ يؤمنُ به . وما يَجْحَدُ بآياتِنا إلا الكافِرون * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بيمينكَ ، إذاً لارتاب الْمُبْطِلونَ * بلْ هُوَ آياتٌ بَيِّنَاتٌ فى صُدورِ الذين أُوتُوا العلمَ وَمَا يَجحدُ بآياتِنا إلا الظالِمُونَ (٢٩ : ٤٧ — ٤٩)

كتابٌ أَنزلناهُ إليكَ مُبارَكٌ ليَدَّبَّروا آياتِه ولِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الألْبابِ (٣٨ : ٢٨) أفلا يتدبَّرون القرآن ؟ ولو كانَ من عندِ غيرِ اللهِ لوجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً (٤ : ٨١) اللهُ نزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتاباً مُتَشابِهاً مثانِىَ ، تَقْشَعِرُّ منه جُلُودُ الذين يخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُم تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلكَ

هُدَى اللهِ يَهدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ (٣٩ : ٢٣) لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشية اللهِ ، وتلكَ الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون (٥٩ : ٢١)

إنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يصلون على النَّبِيِّ . يا أَيُّهَا الذين آمنوا صَلُّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٣٣ : ٥٦) ما كان محمَّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ، ولكن رَسولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وكانَ اللهُ بكلِ شَيءٍ عَلِيماً * يا أَيُّهَا الذين آمنوا اذكروا اللهَ ذِكراً كثيراً ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذى يُصَلِّى عليكم وملائكتُه لِيُخْرِجَكم من الظلمات إلى النُّور . وكان بالمؤمنين رَحِيماً * تحيَّتُهم يومَ يَلْقَونَه سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٣٣ : ٤٠ ـ ٤٤)

أما بعد، فيا أيها المسلمون : إن الله تعالى أنزل عليكم كتابه هدى ونورا ليعلمكم الكتاب والحكمة و يزكيكم ، ويُعِدَّكم لما يَعِدكم به من سعادة الدنيا والآخرة ، ولم ينزله قانونا دنيويا جافا كقوانين الحكام ، ولا كتاباطبياً لمداواة الاجسام، ولا تاريخاً بشرياً لبيان الأحداث والوقائع ، ولا سفراً فنياً لوجوه الكسب والمنافع ، فان كل ذلك مما جعله تعالى باستطاعكم ، لايتوقف على وحى من ربكم . وهذا بعض ما وصف الله تعالى به كتابه فى محكم آياته[1] تدبرها سلفكم الصالح واهتدوا بها فأنجز لهم ماوعدهم من سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة فى مثل قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٢٤ : ٥٣) وفى قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين (٣٠ : ٤٦) وقوله (ولن يجعل الله

(١) إشارة إلى الآيات السابقة ولما فتوى فى حكمة إنزال القرآن أوردنا فيها ٢٤ آية من أمثال هذه الآيات و ١٥ حديثا فى معناها فتراجع فى ص٢٥٨م٨من المنار

للكافرين على المؤمنين سبيلا (٤ : ١٤٠) وقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (٦٣ : ٨) وقوله ولا تهنوا ولاتحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين (٣ : ٣٩)

وعدهم الله تعالى هذه الوعود فى حالى قلتهم وضعفهم وفقرهم و بعدهم عن الملك والسلطان ، وأنجز لهم ماوعدهم بما قضاه وجعله أثراً للاهتداء بالقرآن .

هدى الله بهذا القرآن العرب ، وهدى بدعوتهم إليه أعظم شعوب العجم ، فكانوا به أئمة الامم ، فبالاهتداء به قهروا أعظم دول الأرض المجاورة لهم . دولة الروم (الرومان) ودولة الفرس ، فهذه محوها من لوح الوجود بهدم سلطانها وإسلام شعبها ، وتلك سلبوها ماكان خاضعا لسلطانها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة ، ثم فتحوا الكثير من ممالك الشرق والغرب حتى استولوا على بعض بلاد أوربة وألفوا فيهادولة عربية كانت زينة الأرض فى العلوم والفنون والحضارة والعمران

حاربوا شعوبا كثيرة كانت أقوى منهم فى جميع مايحتاج إليه القتال من عدد وعدد ، وسلاح وكراع ، وحصون وقلاع ، و قاتلوها فى عقر دارها ، ومستقر قوتها ، وهم بعداء عن بلادهم ، نائون عن مقر خلافتهم ، و إنما كانوا يفضلون أعداءهم بشىء واحد ، وهو صلاح أرواحهم الذى تبعه صلاح أعمالهم ، والروح البشرى أعظم قوى هذه الارض ، سخر الله تعالى له سائر قواها ومادتها كما قال (٢ : ٢٨ هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا) (٤٥ : ١٢ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعاً منه . إن فى ذلك الآيات لقوم يتفكرون)

كان أرقى حكام الروم والفرس وغيرهم علما وفنا وأدبا وسياسة يفسد فى الارض ، ويعبث بالمال والعرض ، أو كما قال الله تعالى (٢ : ٢٠٤ و إذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد) وكان المسلم العربى يتولى حكم بلد أو ولاية ، وهو لا علم عنده بشىء من فنون الدولة ، ولا من قوانين الحكومة ، ولم يمارس أساليب السياسة ، ولا طرق الادارة ، و إنما كل ما عنده من العلم بعض سور من القرآن ، فيصلح من تلك الولاية فسادها ، و يحفظ أنفسها وأموالها وأعراضها ، ولا يستأثر بشىء من حقوقها ، هذا وهو فى حال حرب ، وسياسة فتح ، مضطر لمراعاة تأمين المواصلات مع جيوش أمته وحكومتها ،

وسد الذرائع لانقاض أهلها . و إذا صلحت النفس البشرية أصلحت كل شيء تأخذ به وتتولى أمره ، فالإنسان سيد هذه الأرض ، وصلاحها وفسادها منوط بصلاحه وفساده ، وليست الثروة ولا وسائلها من صناعة وزراعة وتجارة هي المعيار لصلاح البشر ، ولا الملك ووسائله من القوة والسياسة : فان البشر قد أوجدوا كل وسائل الملك والحضارة من علوم وفنون وأعمال بعد أن لم تكن — فهي إذاً تابعة من معين الاستعداد الإنساني ، تابعة له دون العكس ، ودليل ذلك في العكس كدليله في الطرد ، فاننا نحن المسلمين وكثيراً من الشعوب التي ورثت الملك والحضارة عن سلف أوجدها من العدم : ممن أضاعوها بعد وجودها بفساد أنفسهم .

صلحت أنفس العرب بالقرآن إذ كانوا يتلونه حق تلاوته في صلواتهم المفروضة وفي تهجدهم وسائر أوقاتهم — فرفع أنفسهم وطهرها من خرافات الوثنية المذلة للنفوس المستعبدة لها ، وهذب أخلاقها وأعلى هممها ، وأرشدها إلى تسخير هذا الكون الأرضي كله لها ، فطلبت ذلك فأرشدها طلبه إلى العلم بسننه تعالى فيه من أسباب القوة والضعف ، والغنى والفقر ، والعز والذل ، فهداها ذلك إلى العلوم والفنون والصناعات ، فأحيت مواتها ، وأبدعت فيها مالم يسبقه إليها غيرها . حتى قال صاحب كتاب تطور الأمم من حكماء الغرب : إن ملكة الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال ، وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد .

قد شاهدنا ولا نزال نشاهد في بلادنا : أن طلب العلوم والفنون مع إهمال التربية المصلحة للنفس لم تحل دون استعباد الأجانب لنا ، كما جرى في دولتي الآستانة والقاهرة وغيرهما . ترى الرجل المتعلم المتفنن يتولى ولاية أو وزارة فيكون أول همه منها تأسيس ثروة واسعة لنفسه وولده لأجل التمتع بالشهوات واللذات والزينة ، وهكذا تفعل كل طبقة من رجال الدولة ، يستنزفون ثروة الأمة بالرشى والحيل وأكل السحت ، و يكون كل مافضل عن شهواتهم بل جل ماينفقونه عليها نصيب الأجانب ، وقد شرحنا هذه الموضوعات من قبل في مواضعها من المنار والتفسير فلا نطيل فيها هنا . و إنما طرقنا هذا الباب لنذكركم أيها القارئون لهذه

الفاتحة بوجوب فهم القرآن والاهتداء به ، وبأن فقهه يتوقف على تفسيره لمن لم يؤت من ملكة لغته وذوق أساليبها وروح بلاغتها ومن تاريخ الاسلام وسيرة الرسول ﷺ وهدى السلف الصالح مايمكنه من فقهه بنفسه .

إنما يفهم القرآن و يتفقه فيه من كان نصب عينه ووجهة قلبه فى تلاوته فى الصلاة وفى غير الصلاة مابينه الله تعالى فيه من موضوع تنزيله ، وفائدة ترتيله ، وحكمة تدبره من علم ونور ، وهدى ورحمة ، وموعظة ، وعبرة وخشوع وخشية ، وسنن فى العالم مطردة . فتلك غاية إنذاره وتبشيره ، و يلزمها عقلا وفطرة : تقوى الله تعالى بترك مانهى عنه ، وفعل ما أمر به بقدر الاستطاعة ، فإنه كما قال (هدى للمتقين)

كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب فى التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية ، والهداية السامية ، فمنها مايشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو ، ونكت المعانى ومصطلحات البيان ، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين ، وتخريجات الأصوليين ، واستنباطات الفقهاء المقلدين ، وتأويلات المتصوفين ، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض ، و بعضها يلفته عنه بكثرة الروايات ، وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات ، وقد زاد الفخر الرازى صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده فى تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة على ما كانت عليه فى عهده ، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة ، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان ، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن .

نعم إن أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن : فنون العربية لابد منها واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية أيضا ، كقواعد النحو والمعانى ، وكذلك بمعرفة الكون وسنن الله تعالى فيه كل ذلك يعين على فهم القرآن

وأما الروايات المأثورة عن النبى ﷺ وأصحابه وعلماء التابعين فى التفسير فمنها ما هو ضرورى أيضاً ، لأن ما صح من المرفوع لايتقدم عليه شىء ، و يليه ما صح عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعانى اللغوية أو عمل عصرهم ، والصحيح من هذا

وذاك قليل . وأكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب، كما قال الحافظ ابن كثير ، وجل ذلك فى قصص الرسل مع أقوامهم ، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم ، وفى تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ومدينة إرم ذات العماد وسحر بابل وعوج بن عنق ، وفى أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها و بعدها ، وجل ذلك خرافات ومفتريات صدقهم فيها الرواة حتى بعض الصحابة (رض) ، ولذلك قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى . وكان الواجب جمع الروايات المفيدة فى كتب مستقلة، كبعض كتب الحديث و بيان قيمة أسانيدها، ثم يذكر فى التفسير ما يصح منها بدون سند ، كما يذكر الحديث فى كتب الفقه ، لكن يعزى إلى مخرجه كما نفعل فى تفسيرنا هذا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : والاختلاف فى التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك، والمنقول إما عن المعصوم أو غيره ، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ومنه ما لا يمكن ذلك ، وهذا القسم ـ الذى لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه ـ عامته مما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته ، وذلك كاختلافهم فى لون كلب أصحاب الكهف واسمه ، وفى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، وفى قدر سفينة نوح وخشبها ، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، ونحو ذلك . فهذه الأمور طريقة العلم بها النقل ، فما كان منها منقولا نقلا صحيحاً عن النبى ﷺ قبل، وما لا ـ بأن نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب ـ وقف عن تصديقه وتكذيبه لقوله ﷺ « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وكذا ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض. وما نقل عن الصحابة نقلا صحيحا فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصحابى بما يقوله كيف يقال : إنه أخذه عن أهل الكتاب ، وقد نهوا عن تصديقهم ؟

« وأما القسم الذى يمكن معرفة الصحيح منه : فهذا موجود كثير ولله الحمد وإن قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى . وذلك لأن الغالب عليها المراسيل . وأما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر مافيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان » ثم ذكر الجهتين اللتين هما مثار الخطأ (وإحداهما) حمل ألفاظ القرآن على معانى اعتقدوها لتأييدها به ـ أقول: كجميع مقلدة الفرق والمذاهب فى الأصول والفروع المتعصبين لها فانهم قد جعلوا مذاهبهم أصولا والقرآن فرعا لها يحمل عليها ، وهذا شر أنواع البدع وتفسير القرآن بالرأى المذموم فى الحديث (والثانية) التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن ، وهو الله عز وجل ، والمنزل عليه والمخاطب به ـ وفصل ذلك بما يراجع فى محله .

فأنت ترى أن هـذا الإمام المحقق جزم بالوقف عن تصديق جميع ماعرف أنه من رواة الإسرائيليات ، وهذا فى غير ما يقوم الدليل على بطلانه فى نفسه . وصرح فى هذا المقام بروايات كعب الأحبار ووهب بن منبه مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوها . فكيف لو تبين له ما تبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيهـا شىء منه ولا حومت حوله ؟ ـ وكذا ماتقل عن بعض التـابعين ، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ـ يعني بخلاف ما اتفق عليه أهل الرواية من علماء التفسير وغيره منهم ، فانه يكون أبعد من أن يكون عن أهل الكتاب . وإنما الوقف فيما ينقل نقلا صحيحا عن كتب الأنبياء كالتوراة والإنجيل التى عندهم ، لا نصدقهم فيه لاحتمال أنه مما حرفوا فيها ، ولا نكذبهم لاحتمال أنه مما حفظوا منها ، فقد قال تعالى فيهم : إنهم (أوتوا نصيبا من الكتاب)

وأنت ترى أيضاً أنه لم يجزم بما روى عن الصحابة (رض) من ذلك ، وإنما قال إن النفس اليه أسكن مما ينقل عن التابعين . لأن احتمال سماعه من النبى ﷺ أقوى من احتمال سماعه من بعض أهل الكتاب لقلة رواية الصحابة عنهم ، وهذا ينقض قول من أطلق الحكم بأن ما قاله الصحابى الثقة مما لا يعرف بالاستدلال

بل بالنقل له حكم الحديث المرفوع . وقد علم أن بعض علماء الصحابة رووا عن أهل الكتاب، حتى عن كعب الأحبار الذى روى البخارى عن معاوية أنه قال «إن كنا لنبلو عليه الكذب» ومنهم أبو هريرة وابن عباس (رض) ومن الصحابة من روى عن بعض التابعين الذين رووا عن أهل الكتاب فالحق أن كل مالا يعلم إلا بالنقل عن المعصوم من أخبار الغيب الماضى أو المستقبل وأمثاله لا يقبل فى إثباته إلا الحديث الصحيح المرفوع إلى النبي ﷺ وهذه قاعدة الإمام ابن جرير التى يصرح بها كثيرا

هذا و إن كلام ابن تيمية لا ينقض قول الإمام أحمد، فإنه لم يعن به أنه لا يوجد فى تلك الثلاثة رواية صحيحة ألبتة . و إنما يعنى أن أكثرها لا يصح له سند متصل وما صح سنده إلى بعض الصحابة يقل فيه المرفوع الذى يحتج به

وغرضنا من هذا كله أن أكثر ما روى فى التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول ، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات ، التى لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً ، كما أن المفضلين لسائر التفاسير لهم صوارف أخرى عنه كما تقدم .

فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة فى وصفه ، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح ، وهو ما ترى تفصيل الكلام عليه فى المقدمة المقتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه . ثم العناية إلى مقتضى حال هذا العصر . فى سهولة التعبير ، ومراعاة أفهام صنوف القارئين ، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها ، إلى غير ذلك مما تراه قريبا — وهو ما يسره الله بفضله لهذا العاجز ، وهاك موجزاً من نبأ تيسيره له

كنت من قبل اشتغالى بطلب العلم فى طرابلس الشام مشتغلا بالعبادة ميالا إلى التصوف ، وكنت أنوى بقراءة القرآن الاتعاظ بمواعظه لأجل الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا . ولما رأيت نفسى أهلا لنفع الناس بما حصلت من العلم على قلته صرت أجلس إلى العوام فى بلدنا أعظهم بالقرآن مغلبا الترهيب على الترغيب والخوف على الرجاء ، والانذار على التبشير ، والزهد فى الدنيا على القصد والاعتدال فيها .

فى أثناء هذه الحال الغالبة علىّ ظفرت يدى بنسخ من جريدة العروة الوثقى فى أوراق والذى فلما قرأت مقالاتها فى الدعوة إلى الجامعة الاسلامية و إعادة مجد الاسلام وسلطانه وعزته ، واسترداد ما ذهب من ممالكه ، وتحرير ما استعبد الأجانب من شعوبه ـ أثرت فى قلبى تأثيراً دخلت به فى طور جديد من حياتى وأعجبت جد الإعجاب بمنهج تلك المقالات فى الاستشهاد والاستدلال على قضاياها بآيات من الكتاب العزيز ، وما تضمنه تفسيرها مما لم يحوم حوله أحد من المفسرين على اختلاف أساليبهم فى الكتابة ، ومداركهم فى الفهم . وأهم ما انفرد به منهج العروة الوثقى فى ذلك ثلاثة أمور :

(أحدها) بيان سنن الله تعالى فى الخلق ونظام الاجتماع البشرى ، وأسباب ترقى الأمم وتدليها ، وقوتها وضعفها (ثانيها) بيان أن الاسلام دين سيادة وسلطان ، وجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ومقتضى ذلك أنه دين روحانى اجتماعى ، ومدنى عسكرى ، وأن القوة الحربية فيه لأجل المحافظة على الشريعة العادلة ، والهداية العامة ، وعزة الملة ، لا لأجل الإكراه على الدين بالقوة (ثالثها) أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم ، فهم إخوة لا يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة .

تلك المقالات التى حببت إلىّ حكيمى الشرق ، ومجددى الاسلام ومصلحى العصر ، السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وهما اللذان أنشآ جريدة العروة الوثقى فى باريس سنة ١٣٠١ عقب احتلال الانكليز لمصر فى أواخر سنة ١٢٩٩ وكان الكاتب لتلك المقالات العالية فيها هو الثانى ولكن بإرشاد الأول و إدارته وسياسته ، وهو أستاذه فى هذا المنهج ومربيه عليه .

توجهت نفسى بتأثير العروة الوثقى إلى الهجرة إلى السيد جمال والتلقى عنه وكان قد جاء إلى الآستانة فكتبت إليه بترجمتى ورغبتى فى صحبته وأنه لا يصدنى عنها إلا إقامته فى الآستانة لاعتقادى أنه لا يستطيع طول المقام فيها ، وعللت ذلك بقولى « لأن بلاد الشرق أمست كالمريض الأحمق يأبى الدواء ويعافه لأنه دواء »

و بعد أن توفاه الله تعالى إليه فيها تعلق أملى بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده للوقوف على اختباره وآرائه فى الاصلاح الاسلامى ، وما زلت أتربص الفرص

لذلك حتى سنحت لى فى رجب سنة ١٣١٥ وكان ذلك عقب إتمام تحصيلى للعلم فى طرابلس ، وأخذ شهادة العالمية أو التدريس من شيوخى فيها . فهاجرت إلى مصر ، وأنشأت المنار للدعوة إلى الإصلاح .

اتصلت بالشيخ فى الضحوة الصغرى لليوم الذى وصلت فى ليله إلى القاهرة فكان اتصالى به من أول يوم كاتصال اللازم البين بالمعنى الأخص بملزومه ، وكان أول اقتراح لى عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التى وجدنا روحها ونورها فى مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة ، فقال : إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه ، فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها ما لم يتقنها بعض . ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل . فاقترحت عليه أن يقرأ درساً فى التفسير ، وكان ذلك فى شعبان سنة ١٣١٥ ثم كررت عليه الاقتراح فى رمضان ، يعتذر بما أذكر أهمه هنا .

زرته يوم الجمعة ١٣ رمضان فقرأ لى عبارة من كتاب إفرنسى فى الطعن على الإسلام ، وطفق يرد عليها بعد أن قال : إن هؤلاء الإفرنج يأخذون مطاعنهم فى الإسلام من سوء حال المسلمين ، مع جهلهم هم بحقيقة الاسلام . قال إن القرآن نظيف والإسلام نظيف ، وإنما لوثه المسلمون بإعراضهم عن كل ما فى القرآن واشتغالهم بسفساف الأمور . وطفق يتكلم بهذه المناسبة فى تفسير قوله تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً) وماذا كان ينبغى للمسلمين أن يكونوا عليه لو اهتدوا بها .

ثم ذكر أن الطاعن ادعى أن المسلمين لم يعلمهم نبيهم من صفات الخالق إلا أنه حاكم قاهر وسلطان عظيم قد أوجب الفتح على أتباعه لأجل قهر الأمم لا لأجل تربيتها . وقال : فأين هذا من تسمية النصارى خالقهم بالأب الدال على الرأفة والعطف ؟ ثم طفق الأستاذ يرد على هذا القول بالكلام على اسم الرب وما فيه من معانى التربية والعطف ، والتفرقة بينه وبين معنى الأب ، وكون طلب الولد يقتضى شهوته لا محبته له وغير ذلك من شؤون الوالد التى ينزه الله تعالى عن الاتصاف بها وأطال فى ذلك

وههنا دار بينى وبينه ما أذكر ملخصه كما كتبته بعد مفارقة ذلك المجلس وهو :

(قلت) لو كتبت تفسيراً على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر وتترك

كل ماهو موجود فى كتب التفسير وتبين ما أهملوه . . .

قال : إن الكتب لاتفيد القلوب العمى. فان كان السيد عمر الخشاب مملوءة بالكتب من جميع العلوم، وهى لا تعلم شيئا منها ، لاتفيد الكتب إلا إذا صادفت قلوبا متيقظة عالمة بوجه الحاجة إليها تسعى فى نشرها . إذا وصل لأيدى هؤلاء العلماء كتاب فيه غير مايعلمون لايعقلون المراد منه ، و إذا عقلوا منه شيئا يردونه ولا يقبلونه ، و إذا قبلوه حرفوه إلى ما يوافق علمهم ومشربهم ، كما جروا عليه فى نصوص الكتاب والسنة التى نريد بيان معناها الصحيح وما تفيده .

« إن الكلام المسموع يؤثر فى النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء لأن نظر المتكلم وحركاته و إشاراته ولهجته فى الكلام — كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه ، وأيضا يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه فاذا كان مكتوبا فمن يسأل ؟ ان السامع يفهم ٨٠ فى المائة من مراد المتكلم ، والقارىء لكلامه يفهم منه ٢٠ فى المائة على ما أراد الكاتب . ومع ذلك كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر و بعض طلبة المدارس الأميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التى تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم، مع أنها كان من حقها أن تكتب ، وماعلمت أحداً كتب منها شيئا خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق ، وكانا يراجعانى فى بعض مايكتبان ، وأما المسلمون فلا

« قرأت تفسير سورة العصر فى سبعة أيام ، وكل درس لايقل عن ساعتين أو ساعة ونصف ، بينت فيها وجه كون نوع الإنسان فى خسر إلا من استثنى الله تعالى ، وما المراد بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، مما لو جمع لكان رسالة حسنة فى تفسير السورة. وماعلمت أحداً كتب من ذلك شيئا إلا أن يكون عبد العزيز[1]

(قلت) إنه يوجد كثير من المتنبهين لحالة العصر و الاسلام فى البلاد المتفرقة وكثير منهم ما نبههم إلا (العروة الوثقى) وأنا لم أتنبه التنبه الذى أنا عليه إلا بها

(قال) إن بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرون على الكلام بأى موضوع أمام أى انسان ، سواء كان يدرك الكلام و يقبله أم لا ، وهذه الخاصية كانت موجودة

١) قرأه بعد ذلك فى الجزائر ثم كتبه باقتراحنا و نشرناه فى المنار ووجده

عند السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها وأنا كنت أحسده على هذا لأنى تؤثر فىّ حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسى للكلام إلا إذا رأيت له محلا. وهكذا الكتابه ، فانى ربما أتصور أن أكتب بموضوع وعندما أوجه قواى لجمع مايحسن كتابته تتوارد على فكرى معان كثيرة ووجوه للكلام جمة ، ثم يأتينى خاطر : لمن ألقى هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ فأتوقف عن الكتابة . وأرى تلك المعانى التى اجتمعت عندى قد امتص بعضها بعضا حتى تلاشت ، ولا أكتب شيئا .

« إن حالة المخاطب تؤثر بى جداً ، ولذلك لا أتكلم بشىء عن حالة الإسلام عندما أجتمع بهؤلاء العلماء ، لأن أفكارهم منصرفة عن ذلك بالكلية ، ولذلك لا يعملون شيئا مع سعة وقتهم . وعند قراءة التفسير كنت أتكلم على حسب حالة الحاضرين لأنى لا أطالع عند ما أقرأ [1] لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب فى الاعراب أو كلمة غريبة فى اللغة . فاذا حضرنى جماعة من البلداء الخاملى الفكر أحلّ لهم المعنى بكلمات قليلة . وإذا كان هناك من يتنبه لما أقول ويلقى له بالا يفتح علىّ بكلام كثير

(قلت) إن الزمان لا يخلو ممن يقدر كلام الإصلاح قدره وإن كانوا قليلين وسيزيد عددهم يوما فيوما ، فالكتابة تكون مرشداً لهم فى سيرهم . وإن الكلام الحق وإن قل الآخذ به والعارف بشأنه ، لابد أن يحفظ وينمو بمصادفة المباءة المناسبة له وهو مقتضى ناموس (أى سنة) الانتخاب الطبيعى ، كما حفظت (العروة الوثقى) فإن أوراقها الأصلية الضعيفة قد بليت لكن مافيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة قد حفظت فى الطروس والنفوس . الخ

ولم أزل به حتى أقنعته بقراءة التفسير فى الأزهر فاقتنع وبدأ بالدرس بعد ثلاثة أشهر ونصف أى فى غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منه فى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شىء محيطا) من الآية ١٢٥ من سورة النساء . فقرأ زهاء خمسة أجزاء فى ست سنين ، إذ توفى لثمان خلون من جمادى الأولى منها رحمه الله تعالى وأثابه

كانت طريقته فى قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه فى كتابة التفسير ، وهو

(١) لعله قال : قبل أن أقرأ يعنى أنه لا يستعد لها بالمطالعة

أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغة ، وفى الروايات التى لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكأ فى ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذى هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقررها أو ينتقد منها ما يراه منتقداً ، ثم يتكلم فى الآية أو الآيات المنزلة فى معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة .

وكنت أكتب فى أثناء إلقاء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه ، وأمده بكل ما أتذكره فى وقت الفراغ ، ولم ألبث أن اقترح علىّ بعض الراغبين فى الاطلاع عليه من قراء المنار فى البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الاخوان بمصر أن أنشره فى المنار . فشرعت فى ذلك فى أول المحرم سنة ١٣١٨ وذلك فى المجلد الثالث من المنار ، وكنت أولا أطلع الاستاذ الإمام على ما أعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه فى المطبعة وقبل طبعه . فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات ، ولا أذكر أنه انتقد شيئا مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضيا بالمكتوب بل معجبا به . على أنه لم يكن كله نقلا عنه ومعزواً إليه ، بل كان تفسيراً للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جلّ ما استفاده منها ، لذلك كنت أعزو إليه القول المنقول عنه إذا جاء بعد كلام لى فى بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فإذا انتهى النقل وشرعت بكلام لى بعده قلت فى بدئه (أقول) ولم يكن هذا التمييز ملتزما فى أول الأمر بل يكثر فى الجزء الأول ما لا أعزو فيه ، ومنه ما هو مشترك بين ما فهمته منه ومن كتب التفسير الأخرى أو من نص الآية على أننى عبرت عنه بأمالى مقتبسة

ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه ، إما قبل طبعه وهو الغالب ، وإما بعده وهو الاقل ، لم أكن أرى حرجا فيما أعزوه إليه مما فهمته منه وان لم أكن كتبته عنه فى مذكرات الدرس ، لان إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو . وبعد أن توفاه الله تعالى صرت أرى من الأمانة أن لا أعزوا اليه إلا ما كتبته عنه أو حفظته حفظا ، وصرت أكثر أن أقول : قال ما معناه ، أو ما مثاله ، أو ما ملخصه ، مثلا ، على أننى أعتقد أنه لو بقى حيا واطلع عليه لاقره كله .

وقد بدأت فى حياته بتجريد تفسير الجزء الثانى من المنار وطبعه على حدته وتوفى قبل طبع نصفه ، فهو قد قرأ ماطبع منه مرتين .وقد اشتد شعورى بعدذلك بأن علىّ وحدى تبعة تأليف تفسير مستقل وتبعة إيداعه ما تلقيته عن هذا العالم الكبير المشرق البصيرة ، وذى النصيب الوافرمن إرث نبى الله داود عليه السلام الذى قال الله تعالى فيه (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وتبعة الأمانة فى النقل بالمعنى أثقل من تبعة تحرى الفهم الصحيح وأدائه ببيان فصيح

وسبب البدء بطبع الجزء الثانى : أن الأول كان مختصراً وغير ملتزم فيه ماالتزمته فيما بعده من تفسير جميع عبارات الآيات وذكر نصوصها ممزوجة فيه . ولذلك اقترحت على الاستاذ أن يعيد النظر فيه ويزيدفيه مايسنح له من زيادة أو إيضاح ، ولا سيما إيضاح ما انتقد عليه إجماله من الكلام فى الملائكة والشياطين وتأويل قصة آدم . فقرأ النصف الأول منه بعد نسخه له وزاد فيه مايراه القارىء معزواً إلى خطه ومميزاً بوضعه بين علامتين بهذا الشكل [ ] وزدت أنا فى جميع الجزء زيادات غير قليلة صاربها موافقاً لسائر الأجزاء فى أسلوبه وكنت أميز زيادتى الأخيرة عن أقوالى التى أسندتها إلى نفسى أولا فى حالى حياة الأستاذ بقولى : وأزيد الآن ، أو وأقول الآن ، ثم تركت ذلك واكتفيت بكلمة (أقول)

هذا وإنى لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أوفى حكمها، وفى تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء ، وفى الاكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر، أو يقوى حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التى أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس، وأستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير ، لتدبر القرآن والاهتداء به فى نفسه ، وفى النهوض بإصلاح أمته ، وتجديد شباب ملته : الذى هو المقصود بالذات منه ، وأسأله أن يخصنى والاستاذ بدعواته الصالحة ؟

محمد رشيد رضا

مقدمة التفسير

﴿ المقتبسة من درس الأستاذ الإمام بالمعنى ، مع البسط والإيضاح ﴾

التكلم فى تفسير القرآن ليس بالأمر السهل ، وربما كان من أصعب الأمور وأهمها ، وما كل صعب يترك . ولذلك لاينبغى أن يمتنع الناس عن طلبه . ووجوه الصعوبة كثيرة . أهمها : أن القرآن كلام سماوى تنزل من حضرة الربوبية التى لايكتنه كنهها : على قلب أكمل الأنبياء . وهو يشتمل على معارف عالية ، ومطالب سامية ، لايشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكيه ، والعقول الصافية ؛ وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال ، الفائضين من حضرة الكمال ، مايأخذ بتلبيبه ، ويكاد يحول دون مطلوبه ، ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه ، لأنه إنما أنزل الكتاب نورا وهدى ، مبينا للناس شرائعه وأحكامه . ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه .

والتفسير الذى نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فإن هذا هو المقصد الاعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له وداء أو وسيلة لتحصيله

التفسير له وجوه شتى (أحدها) النظر فى أساليب الكتاب ومعانيه ، وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام وامتيازه على غيره من القول . سلك هذا المسلك الزمخشرى . وقد ألمّ بشىء من المقاصد

الأخرى ونحا نحوه آخرون (ثانيها) الاعراب . وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا فى بيان وجوهه وما تحتمله الالفاظ منها (ثالثها) تتبع القصص وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا فى قصص القرآن ما شاءوا من كتب التاريخ والاسرائيليات . ولم يعتمدوا على التوراة والانجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل (رابعها) غريب القرآن (خامسها) الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها . وقد جمع بعضهم آيات الأحكام وفسروها وحدها . ومن أشهرهم أبو بكر ابن العربي . وكل من يغلب عليهم الفقه من المفسرين يعنون بتفسير آيات أحكام العبادات والمعاملات أكثر من عنايتهم بسائر الآيات (سادسها) الكلام فى أصول العقائد ومقارعة الزائغين ومحاجة المختلفين . وللامام الرازى العناية الكبرى بهذا النوع (سابعها) المواعظ والرقائق . وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعباد ، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التى وضعها القرآن (ثامنها) ما يسمونه بالإشارة . وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية . ومن ذلك التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى . وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير . وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز .

وقد عرفت أن الاكثار فى مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهى ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيقى . لهذا كان الذى نعنى به من التفسير هو ماسبق ذكره

أى من فهم الكتاب من حيث هو دين ، وهداية من الله للعالمين ، جامعة بين بيان مايصلح به أمر الناس فى هذه الحياة الدنيا ، وما يكونون به سعداء فى الآخرة ، — و يتبعه بلا ريب : بيان وجوه البلاغة بقدر مايحتمله المعنى وتحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن و بلاغته — أى عند الحاجة إلى ذلك كالمسائل التى عدوها مشكلة ، وربما نشير أحيانا إلى الإعراب من غير تصريح بعبارات النحو الإصطلاحية ، كما نفعل ذلك فى بعض نكت البلاغة ، أو قواعد الأصول ، حتى لا تكون الاصطلاحات شاغلا للقارىء عن المعانى ، صارفة له عن العبرة .

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر : لاحاجة إلى التفسير والنظر فى القرآن ، لأن الأئمة السابقين نظروا فى الكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام منهما ، فما علينا إلا أن ننظر فى كتبهم ونستغنى بها . هكذا زعم بعضهم . ولو صح هذا الزعم لكان طالب التفسير عبثا ، يضيع به الوقت سدى وهو — على مافيه من تعظيم شأن الفقه — مخالف لإجماع الأمة من النبى صلى الله عليه وسلم إلى آخر واحد من المؤمنين ، ولا أدرى كيف يخطر هذا على بال مسلم ؟

الأحكام العملية التى جرى الاصلاح على تسميتها فقهاً هى أقل ماجاء فى القرآن ، وأن فيه من التهذيب ودعوة الأرواح إلى مافيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة ، و إرشادها الى طريقة الحياة الإجتماعية : ما لايستغني عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ وما هو أجدر بالدخول فى الفقه الحقيق ، ولا يوجد هذا الإرشاد إلا فى القرآن ، وفيما أخذ منه ، كإحياء العلوم حظ عظيم من علم التهذيب ، ولكن سلطان القرآن

على نفوس الذين يفهمونه وتأثيره فى قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لايساهمه فيه كلام ، كما أن الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ، ولم يفصح عنها عالم ولا إمام ، ثم إن أئمة الدين : قالوا إن القرآن سيبقى حجة على كل فرد من أفراد البشر إلى يوم القيامة . ومن أدلة ذلك حديث « والقرآن حجة لك أو عليك » ولا يعقل إلا بفهمه ، والإصابة من حكمته وحكمه .

خاطب الله بالقرآن من كان فى زمن التنزيل ، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية فى أشخاصهم ، بل لأنهم من أفراد النوع الانسانى ، الذى أنزل القرآن لهدايته . يقول الله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم » فهل يعقل أنه يرضى منا بأن لانفهم قوله هذا ونكتفى بالنظر فى قول ناظر نظر فيه ، لم يأتنا من الله وحى بوجوب اتباعه لاجملة ولا تفصيلا ؟ كلا إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لافرق بين عالم وجاهل . يكفى العامى من فهم قوله تعالى « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » الخ : مايعطيه الظاهر من الآيات ، وأن الذين جمعت أوصافهم فى الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ، ويكفى فى معرفة الأوصاف : أن يعرف معنى الخشوع والاعراض عن اللغو ، وما لاخير فيه والإقبال على مافيه فائدة له دنيوية أو أخروية ، وبذل المال فى الزكاة والوفاء بالعهد ، وصدق الوعد ، والعفة عن إتيان الفاحشة ، وأن من فارق هذه الأوصاف إلى أضدادها فهو المعتدى حدود الله ، المتعرض لغضبه ، وفهم هذه المعانى مما يسهل على المؤمن من أى طبقة كان ، ومن أهل أى لغة كان . ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر مايجذب نفسه إلى الخير ، ويصرفها عن الشر . فإن الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل

أنواع الضعف الذى نحن عليه . وهناك مرتبة تعلو على هذه وهى من فروض الكفاية .

للتفسير . مراتب أدناها : أن يبين بالإجمال مايشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير . وهذه هى التى قلنا إنها متيسرة لكل أحد « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مُدّكِرٍ ؟ »

وأما المرتبة العليا فهى لاتتم إلا بأمور :

(أحدها) فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . من ذلك « لفظ » التأويل : اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ، ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى « هل ينظرون إلا تأويله ؟يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قدجاءت رسل ربنا بالحق » فما هذا التأويل ؟ [1] يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت فى الملة ، ليفرق بينها وبين ماورد فى الكتاب . فكثيرا مايفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى [2] . فعلى المدقق

---

(١) لا أتذكر أن الاستاذ الامام ذكر معناه عند التمثيل، وهو العاقبة ، وما يعد به ـ أى القرآن ـ من المثوبة والعقوبة، أى مايؤول إليه الأمر فى وعد ووعيده ويراجع تحقيق ذلك فى تفسير التأويل والمتشابهات من أول سورة آل عمران

(٢) من ذلك: لفظ «الولى» معناه فى القرآن غالبا الناصر والموالى. وأولياء الله أنصار دينه من أهل الايمان والتقوى. قد اصطلحوا بعد ذلك على أن الاولياء=

أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله . والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ماتكرر فى مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ « الهداية » ـ سيأتى تفسيره فى الفاتحة ـ وغيره ، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية . فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه ببعض ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ : موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

(ثانيها) الأساليب . فينبغى أن يكون عنده من علمها مايفهم به هذه الأساليب الرفيعة . وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه . نعم إننا لانتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام . ولكن يمكننا فهم مانهتدى به بقدر الطاقة . ويحتاج فى هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعانى والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لايفيد المطلوب . ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسددين فى النطق يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع ، أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا ، وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة . ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم ، عند ما اختلطوا بهم . ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم لما فقدوه فى مدة خمسين سنة من بعد الهجرة .

(ثالثها) علم أحوال البشر — فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله

= صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق ويتصرفون فى الكون بما وراء الاسباب ولم يعرف الصحابة هذا المعنى

آخر الكتب و بين فيه ما لم يبينه فى غيره . بين فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم ، والسنن الإلهية فى البشر ، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها . فلا بد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم ، وأدوارهم ، ومنشىء اختلاف أحوالهم ، من قوة وضعف . وعز وذل ، وعلم وجهل ، و إيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير . علويه وسفليه ، و يحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه .

قال الأستاذ الإمام : أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى « ٢ : ٢١٢ . كان الناس أمة واحدة . فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » الآية ـ وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ، وكيف تفرقوا ؟ وما معنى تلك الواحدة التى كانوا عليها ؟ وهل كانت نافعة أم ضارة ؟ وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم (*)

أجمل القرآن . الكلام عن الأمم ، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض ، وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شىء علما ، وأمرنا بالنظر والتفكر ، والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره . لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة .

(رابعها) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن . فيجب على المفسر

(*) كتب الأستاذ الامام رحمه الله تعالى تفسيرا لهذه الآية ، جاء فيه بما لا يوجد فى كتاب . ونشر فى الجزء الثانى من مجلد المنار الثامن ، أى مجلد سنة ١٣٢٣ ويراجع فى الجزء الثانى من التفسير

القائم بهذا الفرض الكفائى : أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم . لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة ، أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه ؟ هل يكتفى من علماء القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد . بأن يقولوا تقليداً لغيرهم : إن الناس كانوا على باطل ، وإن القرآن دحض أباطيلهم فى الجملة ؟ كلا .

وأقول الآن : يروى عن عمر (رض) أنه قال « إنما تنقض عرى الاسلام عروة عروة : إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية » والمراد أن من نشأ فى الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله يجهل تأثير هدايته وعناية الله بجعله مغيرا لأحوال البشر ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور ، ومن جهل هذا يظن أن الاسلام أمر عادى . كما ترى بعض الذين يتربون فى النظافة والنعيم يعدون التشديد فى الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو . لأنه من ضروريات الحياة عندهم ، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة فى تلك الأوامر وتأثير تلك الآداب من أين جاء ؟

(خامسها) العلم بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشؤون دنيويها وأخرويها .

فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان :

(أحدهما) جافٌّ مبعد عن الله وعن كتابه ، وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية وهذا لا ينبغى أن يسمى تفسيراً ، وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعانى وغيرها .

و (ثانيهما) وهو التفسير الذى قلنا : إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية . هو الذى يستجمع تلك الشروط. لأجل أن تستعمل لغايتهـا ، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام . على الوجه الذى يجذب الأرواح، و يسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام ليتحقق فيه معنى قوله « هدى ورحمة » ونحوهما من الأوصاف . فالمقصد الحقيق وراء كل تلك الشروط والفنون : هو الاهتداء بالقرآن .

قال الأستاذ الامام : وهذا هو الغرض الأول الذى أرمى إليـه فى قراءة التفسير .

وتـكلم الاستاذ الامام أيضاً عن التفسير والتأويل فى اصطلاح العلمـاء ثم بين عظيم شأن تفسير القرآن وفهمه بما مثله : مثل الناطقين بالعربية الآن ـ من العراق إلى نهاية بلاد مراكش ـ بالنسبة إلى العرب فى لغتهم كمثل قوم من الأعاجم المخـالطين للعرب ، وجد فى كلامهم ـ بسبب المخالطـة ـ مفردات من العربية . فهؤلاء الأقوام أشـد حاجة إلى التفسير ، وفهم القرآن من المسلمين الأولين ، ولاسيما من كانوا فى القرن الثالث حيث بدىء بكتابة التفسير وأحسّ المسلمون بشدة حاجتهم إليـه ، ولا شك أن من يأتى بعدنا يكون أحوج منا إلى ذلك إذا بقينا على تقهقرنا ، ولكن إذا يسر الله لنا نهضة لإحياء لغتنا ودِيننا فربما يكون من بعدنا أحسن حالا منا .

التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون: هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء فى كتب التفسير على ما فى كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن (٤ : ٨١ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيـه اختلافاً كثيراً) وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر

عليه أفهامهم فى العلم بمعانى الكتاب . ثم يبثونه فى الناس ويحملونهم عليه . ولكنهم لم يطلبوا ذلك ، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها ، ويمارون فيها من يباريهم فى طلبها ، ولا يخرجون لاظهار البراعة فى تحصيلها عن حد الإكثار من القول ، واختراع الوجوه من التأويل ، والإغراب فى الإبعاد عن مقاصد التنزيل ، إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه وإنما يسألنا عن كتابه الذى أنزله لإرشادنا وهدايتنا ، وعن سنة نبيه الذى بين لنا ما نزل إلينا (١٦ : ٤٤ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم) يسألنا هل بلغتكم الرسالة ؟ هل تدبرتم ما بُلِّغتم ؟ هل عقلتم ماعنه نهيتم وما به أمرتم ؟ وهل عملتم بإرشاد القرآن ، واهتديتم بهدى النبى واتبعتم سنته ؟ عجبا لنا ننتظر هذا السؤال ونحن فى هذا الإعراض عن القرآن وهديه ، فيا للغفلة والغرور .

معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالى : أول ما يلقن الوليد عندنا من معرفة الله تعالى ، هو اسم « الله » تبارك وتعالى ، يتعلمه بالأيمان الكاذبة كقوله : والله لقد فعلت كذا وكذا ، والله ما فعلت كذا ، وكذلك القرآن يسمع الصبى ممن يعيش معهم أنه كلام الله تعالى ، ولا يعقل معنى ذلك ، ثم لا يعرف من تعظيم القرآن إلا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم . وذلك بأمرين .

(أحدهما) اعتقاد أن آية كذا إذا كتبت ومحيت بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى ، وأن من حمل القرآن ، لا يقربه جن ولا شيطان ، ويبارك له فى كذا وكذا ، إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة بأكثر مما هو معروف للخاصة ، ومع صرف النظر عن صحة هذا

وعدم صحته نقول : إن فيه مبالغة فى التعظيم عظيمة جداً ولكنها (ويا للأسف) لا تزيد عن تعظيم التراب الذى يؤخذ من بعض الأضرحة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها. أقول: ونحو هذا ما يعلق على الأطفال من التعاويذ والتناجيس[1] كالخرق والعظام والتمائم المشتملة على الطلسمات والكلمات الأعجمية ، المنقولة عن بعض الأمم الوثنية ، هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه ـ إذا جرينا على سنة القرآن ـ عبادة للقرآن لا عبادة لله به

(ثانيهما) الهزة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التى تصدر ممن يسمعون القرآن، إذا كان القارئ رخيم الصوت حسن الأداء عارفا بالتطريب على أصول النغم . والسبب فى هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم ، بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن . وأعنى بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها ، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه . لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذاً جافًّا لم يصحبه ذلك الذوق، وما يتبعه من رقة الشعور ، ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر ، والفهم والتدبر .

لهذا كله يمكننا أن نقول: إن الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية والضالين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم، لأن من أولئك من قال الله تعالى فيهم « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ومعرفة الحق أمر عظيم شريف نعم ربما كان إثم صاحبها مع

---

(١) التعاويذ: جمع تعويذ، ويقال عوذ جمع عوذة (كغرفة وغرف) وهو الرقية وما يعلق من كتابة وغيرها على الانسان للوقاية من العين والجن والفزع ، ومثلها التناجيس : جمع تنجيس وتسمى العرب المعوذ الذى يعلق هذه الاشياء المنجس (بكسر الجيم المشددة) والمعلقة عليه المنجس (بفتحها)

الجحود أشد ، ولكنه يكون دائماً ملوماً من نفسه على الإعراض عن الحق . وهذا اللوم يزلزل ما فى نفسه من الإصرار على الباطل .

كان البدوى راعى الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجداً لما عنده من رقة الإحساس ولطف الشعور ، فهل يقاس هذا بأى متعلم اليوم ؟ أرأيت أهل جزيرة العرب ، كيف انضووا إلى الإسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم من دقة الفهم ، التى كانت سبب الانجذاب إلى الحق . وأشار الأستاذ الإمام هنا إلى البنت الاعرابية التى فطنت لاشتمال الآية الآتية على أمرين ونهيين و بشارتين . ومجمل الخبر : أن الأصمعى قال : سمعت بنتاً من الأعراب خماسية أو سداسية تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله قتلت إنسانا بغير حله

مثل غزال ناعم فى دَلّه وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: ويحك أيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى (٢٧ : ٧ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليمّ ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين) فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين و بشارتين .

لما رأى علماء المسلمين فى الصدر الأول تأثير القرآن فى جذب قلوب الناس إلى الإسلام ، وأن الإسلام لا يحفظ إلا به ، ولما كان العرب قد اختلطوا بالعجم ، وفهم من دخل فى الإسلام من الأعاجم ما فهمه علماء العرب أجمع كل على وجوب حفظ اللغة العربية ، ودونوا لها الدواوين ووضعوا لها الفنون . نعم إن الاشتغال بلغة الأمة وآدابها فضيلة فى نفسه ومادة من مواد حياتها ، ولا حياة لأمة ماتت لغتها . ولكن لم يكن هذا وحده هو

الحامل لسلف الأمة على حفظ اللغة بمفرداتها وأساليبها وآدابها ، وإنما الحامل لهم على ذلك ما ذكرنا .

ألف العلامة الاسفرائيني كتاباً في الفرق ختمه بذكر أهل السنة ومزاياهم وعد من فضائلهم التي امتازوا بها على سائر الفرق: التبريز في اللغة وآدابها، وبين ذلك بأجلى بيان . فأين هذه المزايا اليوم ، وأين آثارها في فهم القرآن ؟ بل وفهم ما دونه من الكلام البليغ ! وقد بينا وجه الحاجة في التفسير إلى تحصيل ملكة الذوق العربي ، وإلى غير ذلك من الأمور التي يتوقف عليها فهم القرآن اهـ

أقول الآن : إن القرآن هو حجة الله البالغة على دينه الحق ، فلا بقاء للاسلام إلا بفهم القرآن فهما صحيحا ، ولا بقاء لفهمه إلا بحياة اللغة العربية ، فإن كان باقيا في بعض بلاد الأعاجم فإنما بقاؤه بوجود بعض العلماء العارفين من التفسير ما يكفي لرد الشبهات عن القرآن عندهم ، وبقاء ثقة العامة بهم وبما يقولونه تقليداً لهم فيه ، أو بعدم عروض الشبه لهم من دعاة الأديان الأخرى ، مع تأثير الوراثة والتقليد من قبيل مايسمى في العلم الطبيعي : بحركة الاستمرار ، ولهذا اتفق علماء الإسلام من العرب والعجم على حفظ اللغة العربية ونشرها كما تقدم وكان العلم والدين في أوج القوة ، بحياة اللغة العربية .

كان جميع من دخل في الإسلام يشعر بأنه صار أخاً لجميع المسلمين وأن أمته هي الأمة الإسلامية ، لا العربية ولا الفارسية ولا القبطية ولا التركيه . . . كما قال تعالى (٢١ : ٩٢ وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ومن البديهي أن وحدة الأمة لا تتم إلا بوحدة اللغة ، ولا لغة تجمع المسلمين وتربطهم إلا لغة الدين الذي جعلهم بنعمة الله إخواناً ، وهي العربية التي لم تعد خاصة بالجنس العربي إذا نظرنا إلى الأجناس (المعبر عنهم في

إصطلاح المنطق بالأصناف) من جهة أنسابهم وأوطانهم . ولهذا كان يجتهد مسلمو العجم فى خدمة هذه اللغة كما يجتهد مسلمو العرب بلا فرق، ويعدونها لغتهم لأنها لغة القرآن التى تقوم بها حجته ، وهم من أمة القرآن كالعرب بلا فرق . قال تعالى (٤٩ : ١٣ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم)وفى حديث جابر عند البيهقى وابن مردويه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى خطبة الوداع فى وسط أيام التشريق « يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى » إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ ـ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال ـ فليبلغ الشاهد الغائب »

ثم حدثت فى الإسلام عصبية الجنسية الجاهلية التى حرمها الاسلام وشدد فى منعها ، بعد أن ضعف العلم والدين فى المسلمين بضعف اللغة العربية فيهم ، حتى قام بعض الأعاجم فى هذه السنين الأخيرة يدعون قومهم إلى ترجمة القرآن بلغتهم والاستغناء عن القرآن العربى . زاعماً أن الاسلام دين ليس له لغة . وغلا بعض هؤلاء فى بغض العربية فدعا مسلمى قومه إلى الأذان والصلاة والخطبة بلغتهم وقد أجمع المسلمون بالعمل على إقامة هذه الشعائر الاسلامية بلغة الاسلام العربية إلى اليوم ، وكان من عاقبة هذا الضعف فى العلم والدين: أن بعض المسلمين فى بلاد الأعاجم (كجاوه) التى يقل فيها العلماء العارفون بالدين ولغته، القادرون على دفع الشبه عن القرآن: صاروا يرتدون عن الاسلام لإيضاع دعاة النصرانية خلالهم ، وسؤالهم الفتنة بالتشكيك فى القرآن والطعن فيه . وأين من يفهمه ويدافع عنه هناك ؟ ومنهم من صار

يفخر بسلفه من الوثنيين والمجوس حتى بفرعون الذى لعنه الله فى جميع كتبه

أمرنا الله تعالى أن نتدبر القرآن ونعتبر به ونتذكر ونهتدى ، وأن نعلم بما نقوله فى صلاتنا من آياته وأذكاره ، وأكد هذه المسائل فى آيات كثيرة والامتثال لها والعمل بها لايكون إلا بفهم العربية الفصحى . ومالايتم الواجب إلا به واجب . وجعل الله تعالى القرآن معجزا للبشر ، ولا تقوم حجته فى هذا عليهم إلا بفهمه ، ولا يمكن فهمه إلا بفهم العربية الفصحى ، فمعرفة العربية من ضروريات دين الاسلام ، ندعو إليها جميع المسلمين بدعائهم إلى القرآن .

و إننا نعتقد أن المسلمين ماضعفوا وزال ماكان لهم من الملك الواسع إلا بإعراضهم عن هداية القرآن ، وإنه لايعود إليهم شىء مما فقدوا من العز والسيادة والكرامة إلا بالرجوع إلى هدايته ، والاعتصام بحبله ، كما يرون ذلك مبينا فى تفسير الآيات الكريمة الدالة عليه ، ولا يتم لهم ذلك إلا بالاتفاق على إحياء لغته . فالدعاء له دعاء لها (٨ : ٢٤ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذ دعاكم لما يحييكم . واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون ٢٥ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ٢٦ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) وبالشكر تدوم النعم ، وكفرها مجلبة النقم ، ولذلك أرشدنا الله فى فاتحة كتابه إلى الدعاء بأن يهدينا صراط المنعم عليهم من الشاكرين ، وها نحن أولاء نبدأ بالمقصود بعون الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

(١)

هذه السورة مكية وآياتها سبع . والفرق بين السور المكية والمدنية : هو أن المكية أكثر إيجازا لأن المخاطبين بها هم أبلغ العرب وأفصحهم، وعلى الإيجاز مدار البلاغة عندهم ، ثم إن معظمها تنبيهات وزواجر و بيان لأصول الدين بالإجمال وقد قلت فى مقدمة الطبعة الثانية لمجلد المنار الأول فى أسلوب السور المكية ما نصه:

إن أكثر السور المكية لا سيما المنزلة فى أوائل البعثة قوارع تصخ الجنان ، وتصدع الوجدان ، وتفزع القلوب إلى استشعار الخوف ، وتدعّ العقول إلى إطالة الفكر، فى الخطبين الغائب والعتيد، والخطرين القريب والبعيد ،وهما عذاب الدنيا بالإبادة والاستئصال ، أو الفتح الذاهب بالاستقلال ، وعذاب الآخرة وهو أشد وأقوى ، وأنكى وأخزى ، بكل من هذا وذاك أنذرت السور المكية أولئك المخاطبين إذا أصروا على شركهم ، ولم يرجعوا بدعوة الإسلام عن ضلالهم و إفكهم ، و يأخذوا بتلك الأصول المجملة ، التى هى الحنيفية السمحة السهلة ، وليست بالشىء الذى ينكره العقل ، أو يستثقله الطبع ، و إنما ذلك تقليد الآباء والأجداد، يصرف الناس عن سبيل الهدى والرشاد ،

راجع تلك السور العزيزة،ولا سيما قصار المفصل منها كالحاقة ما الحاقة ،والقارعة ما القارعة ، و إذا وقعت الواقعة ، و إذا الشمس كورت ، و إذا السماء انفطرت ، و إذا السماء انشقت ،و إذا زلزلت الأرض زلزالها ،والذاريات ذروا ، والمرسلات عرفا ، والنازعات غرقا

تلك السور التى كانت بنذرها ، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها ، تفزعهم من سماع القرآن ، حتى يفروا من الداعى (ص) من مكان إلى مكان (٧٤ : ٥٠ كأنهم حمر مستنفرة ٥١ فرت من قسورة) ـ (١١ : ٥ ألا إنهم يثنون صدورهم

ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون ومايعلنون) ثم إلى السور المكية الطوال ، فلا نجدها تخرج فى الأوامر والنواهى عن حد الاجمال ، كقوله عز وجل (١٧ : ٢٣ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) ـ إلى ٣٧ منها ، وقوله بعد إباحة الزينة وانكار تحريم الطيبات من الرزق (٧ : ٣٢ قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)

وأما السور المدنية ففى أسلوبها شىء من الاسهاب ، ولا سيما فى مخاطبة أهل الكتاب ، لأنهم أقل بلاغة وفهما من العرب الأصلاء ، ولا سيما قريش ، وما فيها من الكلام فى أصول الدين أكثره محاجة لهم ـ لأهل الكتاب ـ ونعى عليهم ، و إثبات لتحريفهم ما نزل إليهم ، وابتداعهم فيه وإعراضهم عن هدايته ، ونسيانهم حظا مما ذكروا به ، ودعوة لهم إلى التوحيد الخالص توحيد الألوهية والربوبية ، و بيان لكون الإسلام الذى جاء به القرآن ، هو دين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وفى هذه السور المدنية أيضا بيان لما لا بد منه من الأحكام العملية فى العبادات والمعاملات ، الشخصية والمدنية والسياسية والحربية ، ولأصول الحكومة الإسلامية والتشريع فيها ، كما تراه فى طوال المفصل منها ، كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة.

وقد اختلف العلماء فى المكى والمدنى من السور. فقيل: المكى ما نزل فى شأن أهل مكة ، و إن كان نزوله فى أهل المدينة. والمدنى غيره ، وقيل المكى : ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، كالذى نزل فى عام الفتح وفى حجة الوداع ، والصحيح الذى عليه الجمهور: أن المكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها ، سواء نزل بالمدينة نفسها أو ضواحيها أو فى مكة عام الفتح وعام حجة الوداع ، أو فى غزوة من الغزوات . فالسور المكية : هى التى نزلت فى أول الاسلام لأجل الدعوة إليه ، ولبيان أساس الدين وكلياته ، من الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، ومن ترك الشرور والمعاصى والمنكرات المعروفة للناس بعقولهم وفطرتهم ، وفعل الخيرات والمعروف بحسب الرأى والاجتهاد الموكول إلى القلوب والضمائر . والسور المدنية هى التى

نزلت بعد الهجرة وكثرة المسلمين وتكون جماعتهم ببيان الأحكام التفصيلية كما قلنا آنفا ، وسترى ذلك مفصلا فى القسمين تفصيلا

والسورة : طائفة من القرآن مؤلفة من ثلاث آيات فأكثر ، لها اسم معروف بالتوقيف والرواية الثابتة بالأحاديث والآثار ، قيل إن اسمها مشتق من السور الذي يحيط بالبلد . وقيل : من السؤر المهموز ، ومعناه البقية ، و بقية كل شيء جزء منه فالمراد بها جزء معين من القرآن . وقيل : من التسور ، وهو العلو والارتفاع

وقد روى أسماء السور عن الصحابة مرفوعة وموقوفة، ولكنهم لم يكتبوها فى مصاحفهم لأنهم لم يكتبوا فيها إلا ألفاظ التنزيل، لئلا يتوهم أحد من الناس إذا هم زادوا شيئا ـ كأسماء السور أو لفظ « آمين » بعد الفاتحة ـ أنه من التنزيل

هذا ـ ولفظ « الفاتحة » صفة مؤنث الفاتح. قال الأستاذ الإمام: سميت الفاتحة فاتحة لأنها أول القرآن فى هذا الترتيب (وتكلم عن لفظ الفاتحة وعن التاء فيه) وتسمى أم الكتاب . وقالوا إن حديث النهى عن تسميتها هذا الاسم موضوع . ثم قال : يتكلمون عند الكلام عن السور على المكى والمدنى ، وهو يفيد فى معرفة الناسخ والمنسوخ ، وهى مكية خلافا لمجاهد ، فالإجماع على أن الصلاة كانت بالفاتحة لأول فرضيتها . ولا ريب أن ذلك كان فى مكة . وقالوا هى المراد بالسبع المثانى فى قوله تعالى (١٥ : ٨٧ ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) وهو مكى بالنص . وقال بعضهم : إنها نزلت مرتين ، مرة بمكة عند فرضية الصلاة ، وأخرى بالمدينة حين حولت القبلة ، وكأن صاحب هذا القول أراد الجمع بين القولين . وليس بشيء . وقال كثيرون إنها أول سورة أنزلت بتمامها .

أقول الآن: ذكر الحافظ السيوطى فى الاتقان أربعة أقوال فى أول ما أنزل (أحدها) « ٩٦ اقرأ باسم ربك » رواه الشيخان وغيرهما من حديث عائشة (ثانيها) « ٧٤ يا أيها المدثر » رواه الشيخان عن سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله . وجمعوا بين القولين بأن الأول هو أول ما نزل على الاطلاق ، وهو صدر سورة اقرأ . والثانى أول سورة نزلت بتمامها أو الثانى أول ما نزل بعد فترة الوحى آمرا بتبليغ الرسالة . وقيل فى الجمع غير ذلك كما فى الاتقان (ثالثها) سورة الفاتحة قال

فى الكشاف: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت (اقرأ) وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب (قال السيوطى) وقال ابن حجر والذى ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول. وأما الذى نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول . وحجته ما أخرجه البيهقى فى الدلائل والواحدى من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة « انى إذا خلوت وحدى سمعت نداء ، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا . فقالت معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث » — وفى الحديث أنه أخبر ورقة بذلك، وأن ورقة أشار عليه بأن يثبت و يسمع النداء وأنه ﷺ لما خلا ناداه ـ أى الملك ـ « يا محمد قل: بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين — حتى بلغ — ولا الضالين » قال السيوطى فى الحديث : هذا مرسل رجاله ثقات ، ونقل عن البيهقى احتمال أن هذا بعد نزول صدر « اقرأ باسم ربك »

هذا — وأما الأستاذ الإمام فقد رجح أنها أول ما نزل على الاطلاق، ولم يستثن قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » ونزع فى الاستدلال على ذلك منزعا غريبا فى حكمة القرآن وفقه الدين فقال ما مثاله .

ومن آية ذلك : أن السنة الإلهية فى هذا الكون ـ سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع ـ أن يظهر سبحانه الشىء مجملا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجا، وما مثل الهدايات الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة، فهى فى بدايتها مادة حياة تحتوى على جميع أصولها ثم تنمو بالتدريج حتى تبسق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها. والفاتحة مشتملة على مجمل ما فى القرآن، وكل ما فيه تفصيل للاصول التى وضعت فيها. ولست أعنى بهذا ما يعبرون عنه بالاشارة ودلالة الحروف، كقولهم إن أسرار القرآن فى الفاتحة ، وأسرار الفاتحة فى البسملة، وأسرار البسملة فى الباء وأسرار الباء فى نقطتها. فان هذا لم يثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم

الرضوان ولا هو معقول فى نفسه و إنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصته وهى البيان

(قال) و بيان ما أريد هو أن مانزل القرآن لأجله أمور (أحدها) التوحيد لأن الناس كانوا كلهم وثنيين وإن كان بعضهم يدعى التوحيد (ثانيها) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة ووعيد من لم يأخذ به وانذاره بشوء العقوبة . والوعد يشمل ماللامة وما للافراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد المخالفين بالخزى والشقاء فى الدنيا كما وعد بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة (ثالثها) العبادة التى تحيى التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس (رابعها) بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة (خامسها) قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهريا لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله فى البشر

هذه هى الأمور التى احتوى عليها القرآن وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ماشك ولا ريب فأما التوحيد ففى قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة فى الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخلق والايجاد والتربية والتنمية ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط بل فيه معنى التربية والانماء وهو صريح بأن كل نعمة يراها الانسان فى نفسه وفى الآفاق منه عز وجل فليس فى الكون متصرف بالايجاد ولا بالاشقاء والاسعاد سواه

التوحيد أهم ماجاء لأجله الدين ولذلك لم يكتف فى الفاتحة بمجرد الاشارة إليه بل استكمله بقوله (إياك نعبد و إياك نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التى كانت فاشية فى جميع الأمم وهى اتخاذ أولياء من دن الله تعتقد لهم

السلطة الغيبية و يدعون لذلك من دون الله و يستعان بهم على قضاء الحوائج فى الدنيا و يتقرب بهم إلى الله زلفى وجميع مافى القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الاجمال

وأما الوعد والوعيد : فالأول منهما مطوى فى « بسم الله الرحمن الرحيم » فذكر الرحمة فى أول الكتاب — وهى التى وسعت كل شىء — وعد بالاحسان وقد كررها مرة ثانية تنبيها لنا على أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالك يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معا لأن معنى الدين الخضوع أى أن له تعالى فى ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التى لانزاع فيها لاحقيقة ولا ادعاء وأن العالم كله يكون فيه خاضعا لعظمته ظاهرا و باطنا يرجو رحمته و يخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن و إما عقاب للمسىء وذلك وعد ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك (الصراط المستقيم) وهو الذى من سلكه فاز ومن تنكبه هلك وذلك يستلزم الوعد والوعيد

وأما العبادة فبعد أن ذكرت فى مقام التوحيد بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) أوضح معناها بعض الايضاح فى بيان الأمر الرابع الذى يشملها و يشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أى أنه قد وضع لنا صراطا سبيينه و يحدده وتكون السعادة فى الاستقامة عليه ، والشقاوة فى الانحراف عنه ، وهذه الاستقامة عليه هى روح العبادة و يشبه هذا قوله تعالى « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فالتواصى بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة فى المتدبر لها وروح العبادة هى إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة من فعل وكف وحركات اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة فى الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه وكانت هذه الروح فى المسلمين قبل أن يكلفوا هذه الأعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التى فصلت فى القرآن تفصيلا ما و إنما الحركات

والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة ، ومخ العبادة الفكر والعبرة .

وأما الأخبار والقصص ففي قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) تصريح بأن هناك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم .وصائح يصيح ألا فانظروا في الشئون العامة التي كانوا عليها واعتبروا بها . كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » حيث بين أن القصص إنما هي للعظة والاعتبار . وفي قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) تصريح بأن غير المنعم عليهم فريقان فريق ضل عن صراط الله وفريق جاحده وعاند من يدعو إليه فكان محفوفا بالغضب الإلهي والخزي في هذه الحياة الدنيا . و باقي القرآن يفصل لنا في أخبار الأمم هذا الاجمال على الوجه الذي يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق عنادا ، والذين ضلوا فيه ضلالا ، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله.

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت اجمالا على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلا فكان إنزالها أولا موافقا لسنة الله تعالى في الابداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما نقول إن النواة أم النخلة فان النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة لا كما قال بعضهم إن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولا و يأتي بعدها الأولاد

وأقول الآن : هذا ماقاله الأستاذ الإمام مبسوطا موضحا و يمكن أن يقال إن نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحكم التي بينها لأنه تمهيد للوحي المجمل والمفصل خاص بحال النبي ﷺ و إعلام له بأنه يكون وهو أمي قارئا بعناية الله تعالى ومخرجا للأميين من أميتهم إلى العلم بالقلم أي الكتابة وفي ذلك استجابة لدعوة إبراهيم (٢:١٢٨ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة و يزكيهم) فسر الأستاذ الإمام الكتاب بالكتابة ثم كانت الفاتحة أول سورة نزلت كاملة وأمر النبي بجعلها أول القرآن وانعقد على ذلك الاجماع

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢) الحمد لله رب العلمين (٣) الرحمن الرحيم (٤) ملك يوم الدين (٥) إياك نعبد وإياك نستعين (٦) اهدنا الصراط المستقيم (٧) صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

لا أذكر ما قاله الأستاذ الإمام فى البسملة من حيث لفظها وإعرابها وهل هى آية أو جزء آية من الفاتحة أو ليست منها فإن الخلاف فى ذلك مشهور وقد اختصر الأستاذ القول فيه اختصاراً وقال : إنها على كل حال من القرآن فنتكلم عليها كسائر الآيات.

وأقول الآن : أجمع المسلمون على أن البسملة من القرآن وأنها جزء آية من سورة النمل . واختلفوا فى مكانها من سائر السور فذهب إلى أنها آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة فقهائهم وقرائهم ومنهم ابن كثير ، وأهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائى من القراء ، وبعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة والشافعى فى الجديد واتباعه والثورى وأحمد فى أحد قوليه والإمامية ومن المروى عنهم ذلك من علماء الصحابة علىّ وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة ومن علماء التابعين سعيد بن جبير وعطاء والزهرى وابن المبارك ، وأقوى حججهم فى ذلك إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها فى المصحف أول كل سورة سوى سورة براءة (التوبة) مع الأمر بتجريد القرآن عن كل ماليس منه ، ولذلك لم يكتبوا (آمين) فى آخر الفاتحة ، وأحاديث منها ما أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنزلت علىّ آنفا سورة فقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم » وروى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة - وفى رواية انقضاء السورة - حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم . وأخرجه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين . وروى الدارقطنى من حديث أبى هريرة قال« قال رسول الله ﷺ إذا قرأتم الحمد لله (أى سورة الحمد لله) فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم فانها أم القرآن والسبع المثانى و بسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها » وذهب مالك وغيره من علماء المدينة والأوزاعى وغيره من علماء الشام وأبو عمرو و يعقوب من قراء البصرة إلى أنها آية مفردة أنزلت لبيان رءوس السور والفصل بينها وعليه الحنفية ، وقال حمزة من قراء الكوفة وروى عن أحمد أنها آية من الفاتحة دون غيرها ، وثمة أقوال أخرى شاذة

هذا - وقد قال الأستاذ الإمام : القرآن إمامنا وقدوتنا فافتتاحه بهذه الكلمة إرشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها فما معنى هذا ؟ ليس معناه أن نفتتح أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به بل أن نقول هذه العبارة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فانها مطلوبة لذاتها

أقول الآن : الاسم هو اللفظ الذى يدل على ذات من الذوات كحجر وخشب وزيد أو معنى من المعانى كالعلم والفرح . وقال ابن سيده هو اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض . وقال الراغب الاسم مايعرف به ذات الشىء وأصله . وقال كثيرون أنه مشتق من السمو وأن أصله سمو لأن تصغيره سمى وجمعه أسماء . والسمو العلو كأن الاسم يعلو مسماه بكونه عنوانا له ودليلا عليه . وقال آخرون إنه من السمة وهى العلامة وأصله وسم . وقال بعض الباحثين فى الكلام والفلسفة إن الاسم يطلق على نفس الذات والحقيقة والوجود والعين وهى عندهم أسماء مترادفة . وهذا القول ليس من اللغة فى شىء ولا هو من الفلسفة النافعة بل من الفلسفة الضارة و إن قال الألوسى بعد نقله عن ابن فورك والسهيلى « وهما ممن يعض عليه بالنواجد » بل لا ينبغى أن يذكر مثل هذا القول إلا لأجل النهى عن إضاعة الوقت فى قراءة ما بنى عليه من السفسطة فى إثبات قول القائلين إن

الاسم عين المسمى وقد كتبوا لغواً كثيرا فى هذه المسألة وقلما ترى أحداً رضى كلام غيره فيها ولكن قد يرضيه كلام نفسه الذى يؤيد به ما لم يفهمه من كلام غيره

والحق أن الاسم هو اللفظ الذى ينطق به لسانك و يكتبه قلمك كقولك : الشمس أو زيد أو مكة . والمسمى هو الكوكب المعروف أو الشخص المعين أو البلد المحدد ، وقد يكون بعيدا عنك عند إطلاق الإسم . ولفظ « اسم » إسم لهذا النوع من اللفظ الذى يدل على الجواهر والاعراض دون الاحداث التى تسمى فى النحو أفعالا . ومدلوله مثل مدلول لفظ إنسان يطلق على أفراد كثيرة كلفظ « الشمس » الذى تنطق به وتكتبه ، ولفظ « زيد » ولفظ مكة ، وغيرذلك من أسماء الموجودات . فالاسم غير المسمى فى اللغة وقد أخطأ من نسب إلى سيبويه غير هذا كما قال ابن القيم بل قال فى كتابه (بدائع الفوائد) ما قال نحوى قط ولا عربى أن الاسم عين المسمى ، وذكر بعض من قال باتحاد الاسم والمسمى بالتسمية و بين الخطأ فى ذلك . وأن معنى « سبح اسم ربك الأعلى » سبح ربك ذاكراً اسمه الأعلى ومعنى « سبح باسم ربك » سبحه ناطقا باسمه العظيم .

ومنشأ الاشتباه عند بعضهم أن الله تعالى أمرنا بذكره وتسبيحه فى آيات و بذكر اسمه وتسبيح اسمه فى آيات أخرى ، فقال تعالى (٧٣ : ٨ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا * ٧٦ : ٢٣ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا * ٢٢ : ٤٠ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ٦ : ١١٨ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ١١٩ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه * ٢٢ : ٣٦ فاذكروا اسم الله عليها صوافّ) أى البدن عند نحرها ، وقال تعالى (٣٣ : ٤٠ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا ٤١ وسبحوه بكرة وأصيلا * ٢ : ١٢٧ فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم — فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا * ٣ : ١٩٠ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم و يتفكرون فى خلق السموات والأرض * ٤ : ١٠٢ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم) وقال تعالى فى التسبيح (٧ : ٢٠٥ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته

و يسبحونه وله يسجدون) أى يسبحون ربك فعدى التسبيح بنفسه إلى ضمير الرب كما عدّاه بنفسه إلى اسم الرب فى قوله تعالى (٨٧ : ١ سبح اسم ربك الأعلى) وبالباء فى قوله (٥٦ : ٩٦ فسبح باسم ربك العظيم) وقال (٥٧ : ١ سبح لله ما فى السموات والأرض) ومثله كثير . وقال تعالى (فتبارك الله * ٢٥ : ١ تبارك الذى نزل الفرقان) كما قال (٥٥ : ٧٨ تبارك اسم ربك)

رأى بعضهم أن يجمع بين هذه الآيات بجعل الاسم عين المسمى ، وأن ذكر الله وذكر اسمه وتسبيحه وتسبيح اسمه واحد، لأن اسمه عين ذاته ، وأن هذا خير من القول بأن لفظ « اسم » مقحم زائد . والصواب أن الذكر فى اللغة ضد النسيان وهو ذكر القلب ولذلك قرنه بالتفكر فى سورة آل عمران (٣ : ١٩٠) وهما عبادتان قلبيتان ، وقال (١٨ : ٢٤ واذكر ربك إذا نسيت) و يطلق الذكر أيضا على النطق باللسان لأنه دليل على ذكر القلب وعنوان وسبب له ، و إنما يذكر اللسان اسم الله تعالى كما يذكر من كل الأشياء أسماءها ، دون ذوات مسميات ؛ فإذا قال نار لا يقع جسم النار على لسانه فيحرقه ، و إذا قال الظمآن « ماء » لا يحصل مسمى هذا اللفظ فى فيه فينقع غلته ، فذكر الله تعالى فى القلب هو تذكر عظمته وجلاله وجماله ونعمه ، وورد التصريح بالأمر بذكر نعمة الله وآلاء الله . وذكره باللسان هو ذكر أسمائه الحسنى وإسناد الحمد والشكر والثناء إليها، وكذلك تسبيحه تعالى، فالقلب يسبحه باعتقاد كماله وتذكر تنزيهه عما لا يليق به ، واللسان يسبحه بإضافة التسبيح إلى أسمائه من غير ذكر للفظ الاسم . روى أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم فى مستدركه وابن حبان فى صحيحه عن عقبة بن عامر قال : لما نزلت « فسبح اسم ربك العظيم » قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجعلوها فى ركوعكم » فلما نزلت « سبح اسم ربك الأعلى » قال « اجعلوها فى سجودكم » والمراد أن يقولوا « سبحان ربى العظيم » « لا سبحان اسم ربى العظيم » فقد روى أحمد وأصحاب السنن الأربعة وصححه الترمذى عن حذيفة قال صليت مع النبى ﷺ فكان يقول فى ركوعه « سبحان ربى العظيم » وفى سجوده « سبحان ربى الأعلى» .ولهذا ورد فى الكلام عن الذبائح ذكر اسم الله عليها « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه» وتقدم آنفا

ذكر عدة آيات فى هذا - فعلم من هذا التحقيق أن الاسم غير المسمى وأن ذكر الاسم مشروع ، وذكر المسمى مشروع ، والفرق بينهما ظاهر كالصبح ، وكذلك التسبيح والتبارك ، فكما يعظم الله يعظم اسمه الكريم ، فيذكر مقرونا بالحمد والشكر والثناء والتقديس . وقد صرحوا بأن تعمد إهانة أسماء الله تعالى فى اللفظ والكتابة كفر لأنه لا يمكن أن يأتى من مؤمن اه ما زدته الآن

وقال الأستاذ الامام مامعناه : عند ماتقول إننى أذكر اسم الله تعالى كالعزيز والحكيم لا تعنى أنك تذكر لفظ « اسم » فلو كان قولهم إن المراد من الابتداء بالكلمة « بسم الله » التبرك باسم الله : هو الصواب لكان ينبغى أن يكون قولك « بالله الرحمن الرحيم » مثل « بسم الله الرحمن الرحيم » وقوله تعالى « باسم الله مجراها ومرساها » وقد قال بعضهم إن الإضافة ههنا للبيان أى أفتتح كلامى باسم الله ولكن يقتضى أن يكون لفظ « الرحمن الرحيم » واردا على اللفظ وهو غير صحيح . و إرادة أن الأسماء الثلاثة هى المبينة للفظ الاسم تحمل ظاهر فما المقصود إذاً من هذا التعبير ؟

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم ومنهم العرب وهو أن الواحد منهم إذا أراد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبته اليه ومنسلخا عنه ، يقول أعمله باسم فلان و يذكر اسم ذلك الأمير أو السلطان لأن اسم الشىء دليل وعنوان عليه ، فإذا كنت أعمل عملا لا يكون له وجود ولا أثر ، لولا السلطان الذى به أمر ، أقول إن عملى هذا باسم السلطان ، أى إنه معنون باسمه ولولاه لما عملته . فمعنى ابتدئ عملى (بسم الله الرحمن الرحيم) أننى أعمله بأمره وله لا لى ولا أعمله باسمى مستقلا به على أنني فلان . فكأنى أقول إن هذا العمل لله لا لحظ نفسى . وفيه وجه آخر وهو أن القدرة التى أنشأت بها العمل هى من الله تعالى فلولا ما منحنى منها لم أعمل شيئا ، فلم يصدر عنى هذا العمل إلا باسم الله ولم يكن باسمى إذ لولا ما آتانى من القوة عليه لم أستطع أن آتيه . وقد تم هذا المعنى بلفظ (الرحمن الرحيم) كما هو ظاهر . وحاصل المعنى أننى أعمل عملى متبرئاً من أن يكون باسمى بل هو باسمه تعالى لأننى أستمد القوة والعناية منه وأرجو إحسانه

عليه ، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله ، بل وما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله فلفظ الإسم معناه مراد ، ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضا ، وكذلك كل من لفظ الرحمن الرحيم . وهـذا الاستعمال معروف مألوف فى كل اللغات . وأقرب اليكم اليوم ما ترونه فى المحاكم النظامية حيث يبتدءون الأحكام قولا وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديو فلان

ومعنى البسملة فى الفاتحة أن جميع ما يقرره فى القرآن من الأحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه ليس لأحد غير الله فيه شيء اهـ

أقول هذا صفوة ماقرره فى متعلق «باسم الله» ومعناها وههنا نظر آخر فيه وهو أن القرآن كان وحيا يلقيه الروح الأمين فى قلب النبى ﷺ وكل سورة منه مبتدأة ببسملة ، فمتعلق البسملة من ملك الوحى تعلم من أول آية نزل بها وهى قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » فمعنى البسملة الذى كان يفهمه النبى ﷺ من روح الوحى : إقرأ يا محمد هذه السورة باسم الله الرحمن الرحيم على عباده أى اقرأها على أنها منه تعالى لامنك فإنه برحمته بهم أنزلها عليك لتهديهم بها إلى مافيه الخير لهم فى الدنيا والآخرة . وعلى هذا كان يقصد النبى ﷺ من متعلق البسملة إنني أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمى وعلى أنها منه لا منى فإنما أنا مبلغ عنه عز وجل (٢٨ : ٩١ وأمرت أن أكون أول المسلمين ٩٢ وأن أتلو القرآن) الخ

اختصر الأستاذ الإمام فى الكلام على لفظ اسم ولفظ الجلالة لأن الكلام فيهما مشهور . وقد تكلمنا على اللفظ الأول وهاك جملة صالحة فى اللفظ الآخر العظيم :

لفظ الجلالة (الله) علم على ذات واجب الوجود قال : ابن مالك وضع معرفا وقيل أصله «إله» فحذفت همزته وأدخلت عليه الألف واللام ، وقيل أصله الإله ، والإله فى اللغة يطلق على كل معبود ولذلك جمعود على آلهة وما كل معبود سموه إلها يطلقون عليه اسم (الله) فإن هذا الاسم الكريم كان خاصا فى لغتهم بخالق السموات والأرض وكل شيء . فالتعريف فيه خصصه بالواحد الفرد الكامل كما جعلوا لفظ «النجم» بالتعريف خاصا بالثريا ، فكان العربى فى الجاهلية إذا سئل من خلقك أو من خلق السموات والأرض ؟ يقول « الله » و إذا سئل عن بعض

آلهتهم : هل خلقت اللات أو العزى شيئا من هذه الموجودات ؟ يقول « لا » وقد احتج القرآن عليهم باعتقادهم هذا كما يأتى فى محله . وإنما كانوا يتوسلون بها إلى الله و يعتقدون شفاعتها عنده .

قال بعض العلماء إن لفظ « إله » من أله بمعنى عبد فهو بمعنى معبود ككتاب بمعنى مكتوب ، يقال أله يأله إلاهة وألوهة وألوهية كما يقال عبد يعبد عبادة وعبودة وعبودية فهو صفة بمعنى اسم المفعول ، وقيل هو من أله بمعنى تحير وقيل من وَلِه بمعنى تحير . وهو إذا استشكل من جهة اللفظ لأنه تعالى منزه عن الحيرة يصح أن يقال من جهة المعنى ، والمراد أنه سبب الحيرة . لأن الناظرين إذا ارتقوا فى سلم أسباب التكوين ينتهون عند درجة الحيرة فى معرفة الموجد الأول الذى هو موجود بنفسه لا بسبب ولا علة سابقة عليه ، و به وجد كل ماعداه ، لا يستطيعون الوصول إلى حقيقة هذا الموجود العظيم الذى لا يعقل وجود هذه الكائنات الممكنة إلا بوجوده ، حتى إن الملاحدة الماديين لما بحثوا فى أصل الموجودات ، وارتقوا إلى معرفة البسائط التى تركبت منها الكائنات ، قالوا إنه لابد أن يكون لها منشأ وحدة مجهول الذات ، ذو قوة وحيوة

والحاصل أن اسم الجلالة « الله » علم على ذات الباري ~~سبحانه وتعالى تجرى~~ عليه الصفات ولا يوصف به . ولفظ « الإله » صفة . والجمهور على أن معناه الشرعى المعبود بحق ، ولذلك أنكر القرآن عليهم تسمية أصنامهم آلهة ، والتحقيق أنه أنكر عليهم تأليهها وعبادتها ، لا مجرد تسميتها ، وقد سماها هو آلهة فى قوله (١١ : ١٠١ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) ولا يظهر فى هذه الآية قصد الحكاية

ومما يترتب على قولنا أن لفظ الجلالة (الله) علم يوصف ولا يوصف به أن أسماء الله الحسنى صفات تجرى على هذا الاسم العظيم ، ولكونها صفات وصفت بالحسنى . قال تعالى (٧ : ٧٩ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) وتسند إليه تعالى أفعال هذه الصفات فيقال : رحم الله فلانا ، و يرحمه الله ، واللهم ارحم فلانا ، وتضاف إليه مصادرها فيقال رحمة الله وربوبيته ومغفرته

(إن رحمة الله قريب من المحسنين) وهذه الأسماء المشتقة كل منها يدل على ذات الله تعالى وعلى الصفة التى اشتق منها معا بالمطابقة ، وعلى الذات وحدها أو الصفة بالتضمن ، ولكل منها لوازم يدل عليها بالالتزام ، كدلالة الرحمن على الاحسان والانعام ، ودلالة الحكيم على الاتقان والنظام ، ودلالة الرب على البعث والجزاء ، لأن الرب الكامل لايترك مربوبيه سدى ، ومن عرف الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، عرف أن اسم الجلالة الأعظم (الله) يدل عليها كلها وعلى لوازمها الكماليه وعلى تنزهه عن أضدادها السلبية ، فدل هذا الاسم الأعلى على اتصاف مسماه بجميع صفات الكمال ، وتنزهه عن جميع النقائص ، فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، اهـ ما أحببت زيادته الآن .

قال الأستاذ الامام مامعناه : والرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة وهى معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الاحسان إلى غيره ، وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر ، لأنه فى البشر ألم فى النفس شفاؤه الاحسان والله تعالى منزه عن الآلام والانفعالات ، فالمعنى المقصود بالنسبة إليه من الرحمة أثرها وهو الاحسان . وقد مشى الجلال فى تفسيره وتبعه الصبان على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد وأن الثانى تأكيد للأول ، ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم وماهى إلا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها .

(قال) : وأنا لاأجيز لمسلم أن يقول فى نفسه أو بلسانه ان فى القرآن كلمة تغاير أخرى ثم تأتى لمجرد تأكيد غيرها بدون أن يكون لها فى نفسها معنى تستقل به . نعم قد يكون فى معنى الكلمة مايزيد معنى الأخرى تقريرا أو إيضاحا ولكن الذى لاأجيزه هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة ، ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لاغير بحيث تكون من قبيل مايسمى بالمترادف فى عرف أهل اللغة . فان ذلك لايقع إلا فى كلام من يرمى فى لفظه إلى مجرد التنميق والتزويق . وفى العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها وأما مايسمونه بالحرف الزائد الذى يأتى للتأكيد فهو حرف وضع لذلك ومعناه هو التأكيد وليس معناه معنى الكلمة التى يؤكدها . فالباء فى قوله تعالى « وكفى بالله شهيدا » تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب

الله جل شأنه بذاتها ومعناها الذى وضعت له ، ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك فى الإعراب وكذلك معنى « من » فى قوله « وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » ونحو ذلك . أما التكرار للتأكيد أو التقرير أو التهويل فأمر سائغ فى أبلغ الكلام عند ما يظهر ذلك القصد منه كتكرار جملة فبأى آلاء ربكما تكذبان » ونحوها عقب ذكر كل نعمة . وهى عند التأمل ليست مكررة ، فان معناها عند ذكر كل نعمة : أفبهذه النعمة تكذبان . وهكذا كل ماجاء فى القرآن على هذا النحو

والجمهور على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ، ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها ، و بعضهم يقول إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ، والرحيم هو المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين . وكل هذا تحكم فى اللغة مبنى على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقا فصفة الرحمن تدل على كثرة الإحسان الذى يعطيه سواء كان جليلا أو دقيقاً . وأما كون أفراد الإحسان التى يدل عليها اللفظ الأكثر حروفا أعظم من أفراد الاحسان التى يدل عليها اللفظ الأقل حروفا ، فهو غير معنى ولا مراد . وقد قارب من قال ان معنى الرحمن المحسن بالاحسان العام ولكنه أخطأ فى تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين. ولعل الذى حمل من قال ان الثانى مؤكد للأول على قوله هذا هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه .

قال الأستاذ الامام : والذى أقول إن صيغة فعلان تدل على وصف فعلى فيه معنى المبالغة كفعال وهو فى استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان وأما صيغة فعيل فانها تدل فى الاستعمال على المعانى الثابتة كالأخلاق والسجايا فى الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل . والقرآن لايخرج عن الأسلوب العربى البليغ فى الحكاية عن صفات الله عزوجل التى تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين . فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهى إفاضة النعم والاحسان ، ولفظ الرحيم يدل على منشإ هذه الرحمة والاحسان وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لايستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ولا يكون الثانى مؤكداً للأول ، فاذا سمع العربى وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا لا يعتقد

منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما . لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة و إن كان كثيراً ، فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذى يليق بالله تعالى و يرضيه سبحانه ، و يعلم أن لله صفة ثابتة هى الرحمة التى عنها يكون أثرها ، و إن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه ا هـ

أقول قد سبق العلامة ابن القيم إلى مثل هذه التفرقه ولكنه عكس فى دلالة الاسمين الكريمين . قال : وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى بديع ، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، وكأن الأول الوصف ، والثانى الفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته أى صفة ذات له سبحانه والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته ، أى صفة فعل له سبحانه ، فاذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما * إنه بهم رءوف رحيم) ولم يجىء قط رحمن بهم ، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ، ورحيم هو الراحم برحمته ، (قال رحمه الله تعالى) هذه النكتة لاتكاد تجدها فى كتاب ، و إن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها .

وقال فى كتاب آخر عند ذكر الاسمين الكريمين : وكرر أذانا (أى إعلاما) بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته ، فالرحمن الذى الرحمة وصفه ، والرحيم الراحم لعباده ، ولهذا يقول تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما * انه بهم رءوف رحيم) ولم يجىء رحمن بعباده ولا رحمن بالمؤمنين ، مع مافى اسم الرحمن الذى هو على وزن (فعلان) من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه للموصوف به . ألا ترى أنهم يقولون غضبان للمتلىء غضبا وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملىء بذلك فبناء فعلان للسعة والشمول ا هـ المراد منه .

أقول إن هذه الأمثلة تؤيد ماقاله الاستاذ الامام من أن صيغة (فعلان) تدل على الصفة العارضة ولاتدل على الدائمة فاحتيج إلى صيغة أخرى تدل على الصفة الثابتة الدائمة وهى صيغة (فعيل) فهذا أقوى ماقيل فى نكتة الجمع بين الاسمين الكريمين بالصيغتين . و يليه دلالة أحدهما على الرحمة بالقوة والآخر دلالة

عليها بالفعل . وهذا معنى آخر ألمّ به هذان الامامان ،ولكن ابن القيم جعل لفظ الرحيم هو الدال على الرحمة بالفعل بدليل الآيتين اللتين أوردهما ، ولفظ الرحمن هو الدال عليها بالقوة لعدم تعلق مثل ذلك الظرف به ، وهو قوى . وعكس محمد عبده وجعل ذلك من مدلول الصيغة باللزوم .

﴿ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

قالوا : إن معنى الحمد الثناء باللسان،وقيدوه بالجميل لأن كلمة «ثناء» تستعمل فى المدح والذم جميعا ،يقال : أثنى عليه شراً ، كما يقال أثنى عليه خيراً . ويقولون إن « أل » التى فى الحمد هى للجنس فى أىّ فرد من أفراده لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص ، لأنه لا يصار إلى كلّ منهما فى فهم الكلام إلا بدليل وهو غير موجود فى الآية ، ومعنى كون الحمد لله تعالى بأى نوع من أنواعه هو أن أى شىء يصح الحمد عليه فهو مصدره و إليه مرجعه فالحمد له على كل حال .

وهذه الجملة خبرية ولكنها استعملت لإنشاء الحمد ـ فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل فى أى أنواعه تحقق فهو ثابت له تعالى وراجع إليه ، لأنه متصف بكل مايحمد عليه الحامدون . فصفاته أجل الصفات ، و إحسانه عمّ جميع الكائنات ، ولأن جميع ما يصح أن يتوجه إليه الحمد مما سواه فهو منه جل ثناؤه ، إذ هو مصدر الكون كله ، فيكون له ذلك الحمد أولاً و بالذات . والخلاصة أن أىّ حمد يتوجه إلى محمود ما فهو لله تعالى سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه . وأما معنى الانشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء إلى الله تعالى فى الحال

هذا ملخص ماقاله الأستاذ الامام ، وأقول الآن : التعريف المشهور بين العلماء للحمد أنه الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، أى الفعل الجميل الصادر عن فاعله باختياره أى سواء أسدى هذا الجميل إلى الحامد أم لا . اهـ وأزيد عليهم أنه قد يحمد غير الفاعل المختار تنزيلا له منزلة الفاعل فى نفعه ، ومنه : إنما يحمد السوق من ربح . وهذا هو المتبادر من استعمال اللغة . وحذف بعضهم قيد الاختيار ليدخل

فى الحمد الثناء على صفات الكمال ولذلك وصف بعضهم الجميل الاختيارى بقوله : سواء كان من الفضائل ـ أى الصفات الكمالية لصاحبها ـ أو الفواضل ـ وهى مايتعدى أثره من الفضل إلى غير صاحب الفضل. والظاهر أن الحمد على الفضائل وصفات الكمال إنما يكون باعتبار مايترتب عليها من الأفعال الاختيارية. وماعدا هذا من الثناء تسميه العرب مدحا . يقال : مدح الرياض ومدح المال ومدح الجمال ولا يطلق الحمد على مثل هذه الأشياء ، وقيل هما مترادفان . والمقام المحمود للنبى صلى الله عليه وسلم هو مايحمد فيه لما يناله الناس كلهم من خير دعائه وشفاعته على المشهور . وسيأتي تفسيره فى موضعه إن شاء الله تعالى . وقد يقال : إن ماذكر هو الحمد الذى يكون من بعض الناس لبعض ، وأما الله عز وجل فإنه يحمد لذاته باعتبار أنها مصدر جميع الوجود الممكن وما فيه من الخيرات والنعم ، أو مطلقا خصوصية له ، إذ ليست ذات أحد من الخلق كذاته . و يحمد لصفاته باعتبار تعلقها وآثارها كما سترى بيانه فى تفسير الرب والرحمن والرحيم

﴿ رب العالمين ﴾ يشعر هذا الوصف ببيان وجه الثناء المطلق ومعنى الرب السيد المربى الذى يسوس مسوده و يربيه و يدبره ولفظ « العالمين » جمع عالم بفتح اللام جمع جمع المذكر العاقل تغليباً وأريد به جميع الكائنات الممكنة ، أى إنه رب كل مايدخل فى مفهوم لفظ العالم . وماجمعت العرب لفظ العالم هذا الجمع إلا لنكتة تلاحظها فيه وهى أن هذا اللفظ لا يطلق عندهم على كل كائن وموجود كالحجر والتراب و إنما يطلقونه على كل جملة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العاقل الذى جمعت جمعه ، إن لم تكن منه ، فيقال عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات . ونحن ترى أن هذه الأشياء هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يعطيه لفظ « رب » لأن فيها مبدأها وهو الحياة والتغذى والتولد ، وهذا ظاهر فى الحيوان ، ولقد كان السيد (أى جمال الدين الأفغانى) رحمه الله تعالى يقول : الحيوان شجرة قطعت رجلها من الأرض فهى تمشى ، والشجرة حيوان ساخت رجلاه فى الأرض فهو قائم فى مكانه يأكل و يشرب ، و إن كان لا ينام ولا يغفل .

هذا ملخص ماقاله الأستاذ الإمام . وأزيد الآن أن بعض العلماء قال إن

المراد بالعالمين هنا أهل العلم والإدراك من الملائكة والإنس والجن ، ويؤثر عن جدنا الامام جعفر الصادق عليه الرضوان . أن المراد به الناس فقط كما يدل على هذا وذاك استعمال القرآن فى مثل « أتأتون الذكران من العالمين » أى الناس ومثل «ليكون للعالمين نذيرا» ويرى بعضهم أنه على هذا مشتق من العلم . ومن قال يعم جميع أجناس المخلوقات يرى أنه مشتق من العلامة ، وربوبية الله للناس تظهر بتربيته إياهم ، وهذه التربية قسمان : تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية ـ وتربية شرعية تعليمية وهى مايوحيه الى أفرادهم ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل إذا اهتدوا به . فليس لغير رب الناس أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحرم عليهم ويحل لهم من عند نفسه بغير إذن منه تعالى .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ تقدم معناهما وبقى الكلام فى اعادتهما والنكتة فيها ظاهرة وهى أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة وإنما هى لعموم رحمته وشمول إحسانه . وثمَّ نكتة أخرى وهى أن البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فذكر الرحمن وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لامنتهى لها ، والرحيم الثابت له وصف الرحمة لايزايله أبدا . فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة واحسان ليعلموا أن هذه الصفة هى التى ربما يرجع إليها معنى الصفات ، وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته ، منشرحة صدورهم ، مطمئنة قلوبهم ، ولا ينافى عموم الرحمة وسبقها ماشرعه الله من العقوبات فى الدنيا ، وما أعده من العذاب فى الآخرة ، للذين يتعدون الحدود ، وينتهكون الحرمات ، فإنه وإن سُمى قهراً بالنسبة لصورته ومظهره ، فهو فى حقيقته وغايته من الرحمة ، لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية ، وفى الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم ، وفى الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم ، والوالد الرؤوف يربى ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان عليه إذا قام به ، وربما لجأ إلى الترهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال ، ولله المثلُ الأعلى لا إله إلا هو وإليه يرجعون .

أقول الآن : إنني لا أرى وجها للبحث فى عد ذكر « الرحمن الرحيم » فى سورة الفاتحة تكراراً أو إعادة مطلقاً . أما على القول بأن البسملة ليست آية منها فظاهر ، وأما على القول بأنها آية منها فيحتاج إلى بيان ، وهو أن جعلها آية منها ومن كل سورة يراد به ماتقدم شرحه آنفا من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يلقنها و يبلغها للناس على أنها (أى السورة) منزلة من عند الله تعالى أنزلها برحمته لهداية خلقه وأنه صلى الله عليه وسلم لا كسب له فيها ولا صنع ، و إنما هو مبلغ لها بأمر الله تعالى. فهى مقدمة للسور كلها إلا سورة براءة المنزلة بالسيف وكشف الستار عن نفاق المنافقين، فهى بلاء على من أنزل أكثرها فى شأنهم لا رحمة بهم . و إذا كان المراد ببدء الفاتحة بالبسملة أنها منزلة من الله رحمة بعباده فلا ينافى ذلك أن يكون من موضوع هذه السورة بيان رحمة الله تعالى مع بيان ربوبيته للعالمين ، وكونه الملك الذى يملك وحده جزاء العاملين على أعمالهم ، وأنه بهذه الأسماء والصفات كان مستحقا للحمد من عباده ، كما أنه مستحق له فى ذاته ، ولهذا نسب الحمد إلى اسم الذات، الموصوف بهذه الصفات .

والحاصل أن معنى الرحمة فى بسملة كل سورة هو أن السورة منزلة برحمة الله وفضله فلا يبعد ماعساه يكون فى أول السورة أو أثنائها من ذكر الرحمة مكررا مع مافى البسملة ، وإن كان مقرونا بذكر التنزيل كأول سورة فصلت (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) لأن الرحمة فى البسملة للمعنى العام فى الوحى والتنزيل ، وفى السور للمعنى الخاص الذى تبينه السورة . وقد لاحظ هذا المعنى من قال إن البسملة آية مستقلة فاصلة بين السور . وأما من قال إنها آية من كل سورة فمراده أنها تقرأ عند الشروع فى قراءتها ، وأن من حلف ليقرأن سورة كذا لا يبرأ إلا إذا قرأ البسملة معها ، وأن الصلاة لا تصح إلا بقراءتها أيضا .

هذا — وأما حظ العبد من وصف الله بالربوبية فهو أن يحمده تعالى عليه و يشكره له باستعمال نعمه التى تتربى بها القوى الجسدية والعقلية فيما خلقت لأجله فليحسن تربية نفسه وتربية من يوكل إليه تربيته من أهل وولد ومريد وتلميذ ، و باستعمال نعمه بهداية الدين فى تربية نفسه الروحية والاجتماعية وكذا تربية من

يوكل إليه تربيتهم . وأن لا يبغى كما بغى فرعون فيدعى أنه رب الناس ، وكما بغى فراعنة كثيرون ولا يزالون يبغون بجعل أنفسهم شارعين يتحكمون فى دين الناس بوضع العبادات التى لم ينزلها الله تعالى ، و بقولهم هذا حلال ، وهذا حرام من عند أنفسهم أو من عند أمثالهم ، فيجعلون أنفسهم شركاء لله فى ربو بيته . قال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وفسر النبى صلى الله عليه وسلم اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابا بمثل هذا .

وأما حظ العبد من وصف الله بالرحمة فهو أن يطالب نفسه بأن يكون رحيما بكل من يراه مستحقا للرحمة من خلق الله تعالى حتى الحيوان الأعجم ، وأن يتذكر دائما أنه يستحق بذلك رحمة الله تعالى . قال صلى الله عليه وسلم « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » رواه الطبرانى عن جرير بسند صحيح . وقال « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم . من حديث ابن عمر . وروينا ه مسلسلا بالأولية من طريق الشيخ أبى المحاسن محمد القاوقجى الطرابلسى الشامى . وقال ﷺ « من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة » رواه البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى عن أبى أمامة وأشار السيوطى فى الجامع الصغير إلى صحته ، ومما يدل على الترغيب فى رحمة الحيوان والرفق به بغير لفظ الرحمة . حديث « فى كل ذات كبد حرّى أجر » رواه أحمد وابن ماجه عن سراقة بن مالك ؛ وأحمد أيضا عن عبد الله ابن عمرو . وهو حديث صحيح .

ومن مباحث اللغة أن لفظ الرحمن خاص بالله تعالى كلفظ الجلالة . قالوا لم يسمع عن أحد من العرب أنه أطلقه على غير الله تعالى ، وكذلك لفظ « رحمن » غير معرّف ، قالوا لم يرد اطلاقه على غير الله تعالى إلا فى شعر لبعض الذين فتنوا بمسيلمة الكذاب قال فيه * وأنت غيث الورى لازلت رحمانا * وقيل إن هذا تعنت وغلو لا من الاستعمال المعروف عند العرب . وأما العرب فكانت تطلق لفظ رب على الناس يقولون : رب الدار ورب هذه الأنعام مثلا لا رب الأنعام مطلقا . قال عبد المطلب فى يوم الفيل : أما الإبل فأنا ربها وأما البيت فإن له ربا يحميه . وقال

تعالى فى حكاية قول يوسف عليه السلام فى مولاه عزيز مصر « إنه ربى أحسن مثواى » و يرى بعض العلماء أن هذا الاستعمال ممنوع فى الاسلام واستدل بالنهى فى الحديث عن قول المملوك لسيده «ربى» والصواب أن يمنع ماورد النص به كهذا الاستعمال وما من شأنه ألا يقال إلا فى البارىء تعالى كلفظ الرب بالتعريف مطلقا ولفظ رب الناس رب المخلوقات رب العالمين وما أشبه ذلك .

﴿ مَالِكِ يوم الدين ﴾

قرأ عاصم والكسائى و يعقوب «مالك» والباقون « مَلِكِ » وعليها أهل الحجاز والفرق بينهما أن المالك ذو الملك بكسر الميم والملك ذو الملك بضمها ، والقرآن يشهد للأولى بمثل قوله «يوم لاتملك نفس لنفس شيئا» وللثانية بقوله «لمن المُلك اليوم» قال بعضهم إن قراءة مَلك أبلغ لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبير . وقال آخرون إن القراءة الأخرى أبلغ لأن الملك هو الذى يدبر أعمال رعيته العامة ولا تصرف له بشىء من شؤونهم الخاصة والمالك سلطته أعم . قال الأستاذ الإمام : و إنما تظهر هذه التفرقة فى عبد مملوك فى مملكة لها سلطان ، فلا ريب أن مالكه هو الذى يتولى جميع شئونه دون سلطانه .

وأقول الآن الظاهر أن قراءة « ملك » أبلغ لأن معناها المتصرف فى أمور العقلاء المختارين بالأمر والنهى والجزاء ولهذا يقال «ملك الناس» ولا يقال ملك الأشياء . قاله الراغب . وقال فى « ملك يوم الدين » تقديره الملك فى يوم الدين لقوله «لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » اه و إنما كان هذا أبلغ لأن السياق يدلنا على أن المراد بالآية تذكير المكلفين بما ينتظرهم من الجزاء على أعمالهم رجاء أن تستقيم أحوالهم . ومعنى «مالك يوم الدين» قد يستفاد من قوله «رب العالمين» على أن مجموع القراءتين يدل على المعنيين فكلاهما ثابت ولكن القراءة فى الصلاة بملك يوم الدين تثير من الخشوع ما لاتثيره القراءة الأخرى التى يفضلها بعضهم لأنها تزيد حرفا فى النطق ، وورد فى الحديث أن للقارىء بكل حرف كذا حسنة ولكن فاتهم أن حسنة واحدة تكون أكبر تأثيراً فى القلب خير من مائة حسنة يكن دونها فى التأثير

و (الدين) يطلق فى اللغة على الحساب وعلى المكافأة وورد « كما تدين تدان » وقال الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا ن دنّاهم كما دانوا

وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة ، وعلى الطاعة ، وعلى الإخضاع وعلى السياسة يقال : دِنته ، ودَينته فلانا (بالتشديد) أى وليته سياسته وهو قريب من معنى الإخضاع ، وعلى الشريعة وما يؤخذ العباد به من التكاليف . والمناسب هنا من هذه المعانى الجزاء والخضوع . وإنما قال « يوم الدين » ولم يقل « الدين » لتعريفنا بأن للدين يوماً ممتازاً عن سائر الأيام ، وهو اليوم الذى يلقى فيه كل عامل عمله ويوفّى جزاءه .

ولسائل أن يسأل : أليست كل الأيام أيام جزاء . وكل مايلاقيه الناس فى هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم فى أداء الحقوق والقيام بالواجبات التى عليهم ؟ والجواب بلى إن أيامنا التى نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا ولكن ربما لايظهر لأربابه إلا على بعضها دون جميعها . والجزاء على التفريط فى العمل الواجب إنما يظهر فى الدنيا ظهوراً تاماً بالنسبة إلى مجموع الأمة لا إلى كل فرد من الأفراد ، فما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم تراع سننه فى خليقته إلا وأحل بها العدل الإلهى ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة . وأما الأفراد فاننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين فى الشهوات واللذات ، نعم إن ضمائرهم توبخهم أحياناً وإنهم لا يسلمون من المنغصات ، وقد يصيبهم النقص فى أموالهم ، وعافية أبدانهم ، وقوة عقولهم . ولكن هذا كله لايقابل بعض أعمالهم القبيحة ، لاسيما الملوك والأمراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أمم وشعوب . كذلك نرى من المحسنين فى أنفسهم وللناس من يبتلى ببعض حقوقه ، ولا ينال الجزاء الذى يستحقه على عمله ، فان كان قد ينال رضاء نفسه وسلامة أخلاقه وصحة ملكاته ، فما ذلك كل ما يستحق ، وفى ذلك اليوم يوفى كل فرد من أفراد العاملين جزاءه كاملا لايظلم شيئا منه ، كما قال تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

علمنا الله أنه رحمن رحيم ليجذب قلوبنا اليه ، ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا إليه الانجذاب المطلوب ؟ أليس فينا من يسلك كل سبيل . لا يبالى بمستقيم ومعوج ؟ بلى ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين ، فعرفنا أنه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم ، فكان من رحمته بعباده أن ربّاهم بنوعى التربية كليهما : الترغيب والترهيب ، كما تشهد بذلك آيات القرآن الكثيرة « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم »

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

ماهى العبادة ؟ يقولون هى الطاعة مع غاية الخضوع ، وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل ، وتجليه للأفهام واضحاً لايقبل التأويل ، فكثيراً مايفسرون الشىء ببعض لوازمه ويعرفون الحقيقة برسومها ، بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظى ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة ، التى شرحوا بها معنى العبادة ، فان فيها إجمالا وتساهلا . وإننا إذا تتبعنا آى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد ومايماثلها ويقاربها فى المعنى ـ كخضع وخنع وأطاع وذل ـ نجد أنه لاشىء من هذه الألفاظ يضاهى « عبد » ويحل محلها ويقع موقعها ، ولذلك قالوا : إن لفظ « العباد » مأخوذ من العبادة فتكثر إضافته إلى الله تعالى ، ولفظ « العبيد » تكثر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق ، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى . ومن هنا قال بعض العلماء إن العبادة لاتكون فى اللغة إلا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه

يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه والخضوع له غلواً كبيراً حتى يفنى هواه فى هواه ، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لايسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء . فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم مالا تراه من المتحنثين القانتين ، دع سائر العابدين ، ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة ، فما هى العبادة إذاً ؟

تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربى الصراح على أن العبادة ضرب

من الخضوع بالغ حد النهاية ناشىء عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها . وقصارى مايعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق ادراكه ، فمن ينتهى إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال انه عبده ، وإن قبل موطىء أقدامه ، ما دام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود،أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً،وأكرمهم جوهراً ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد ، إلى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية .

للعبادة صور كثيرة فى كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها ، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه،والأثر انما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع ، فاذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة ، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنساناً

خذ إليك عبادة الصلاة مثلا وانظر كيف أمر الله بإقامتها ، دون مجرد الإتيان بها . واقامة الشىء هى الإتيان به مقوماً كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره . وآثار الصلاة ونتائجها هى ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقوله عز وجل « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين » وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدى إلى غايتها بقوله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التى هى توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته،والمشعر للقلوب

بعظم سلطانه ، ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون . وذكر الاستاذ الامام أن الرياء ضربان : رياء النفاق وهو العمل لأجل رؤية الناس ، ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ، ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب إليه به ، وهو ما عليه أكثر الناس ، فان صلاة أحدهم فى طور الرشد والعقل هى عين ما كان يحاكى به أباه فى طور الطفولية عندما يراه يصلى ـ يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل ، وليس لله شىء فى هذه الصلاة. وقد ورد فى بعض الأحاديث أن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً وأنها تلف كما يلف الثوب البالى ويضرب بها وجهه . وأما الماعون فهو المعونة والخير الذى تقدم فى الآية الأخرى أن من شأن الإنسان أن يكون منوعا له إلا المصلين .

والاستعانة طلب المعونة وهى إزالة العجز والمساعدة على اتمام العمل الذى يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه

ثم تكلم الاستاذ الإمام على حصر العبادة والاستعانة فى الله تعالى الذى دل عليه تقديم المفعول (إياك) على الفعل (نعبد) و (نستعين) فقال ما مثاله

أمرنا الله تعالى بأن لا نعبد غيره ، لأن السلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد فيعظم تعظيم العبادة ، وأمرنا بأن لا نستعين بغيره أيضا وهذا يحتاج إلى البيان لأنه أمرنا أيضا فى آيات أخرى بالتعاون (٥ : ٢ وتعاونوا على البر والتقوى) فما معنى حصر الاستعانة به مع ذلك؟

الجواب أن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التى اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية اليه ، وانتفاء الموانع التى من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد مكن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب ، وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما فى استطاعتنا من ذلك ، ونبذل فى إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة ، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضا على ذلك ، ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر على كل شىء ، ونلجأ اليه وحده ، ونطلب المعونة المتممة للعمل

والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه ، إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الأسباب ، ورب الأرباب ، فقوله تعالى « وإياك نستعين » متمم لمعنى قوله « إياك نعبد » لأن الاستعانة بهذا المعنى فزع من القلب إلى الله وتعلق من النفس به ، وذلك مخ العبادة ، فاذا توجه العبد بها إلى غير الله تعالى كان ضرباً من ضروب العبادة الوثنية التى كانت ذائعة فى زمن التنزيل وقبله ، وخصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم أولياء من دون الله ، واستعانوا بهم فيما وراء الأسباب المكتسبة لعامة الناس : هى كالاستعانة بسائر الناس فى الأسباب العامة ، فأراد الحق جل شأنه أن يرفع هذا اللبس عن عباده ببيان أن الاستعانة بالناس فيما هو فى استطاعة الناس انما هو ضرب من استعمال الأسباب المسنونة ، وما منزلتها الا كمنزلة الآلات فيما هى آلات له ، بخلاف الاستعانة بهم ، فى شؤون تفوق القدر والقوى الموهوبة لهم ، والأسباب المشتركة بينهم ، كالاستعانة فى شفاء المرض بما وراء الدواء ، وعلى غلبة العدو بما وراء العدة والعُدة ، فان ذلك مما لا يجوز الفزع والتوجه فيه إلى غير الله تعالى صاحب السلطان الأعظم ، على ما لا يصل اليه سلطان أحد من العالم .

ضرب الأستاذ الإمام مثلا لذلك الزارع يبذل جهده فى الحرث والعذق وتسميد الأرض وريها ، ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية ، ومثل بالتاجر يحذق فى اختيار الأصناف ويمهر فى صناعة الترويج ، ثم يتكل على الله فيما بعد ذلك . ثم قال : ومن هنا تعلمون أن الذين يستعينون بأصحاب الاضرحة والقبور على قضاء حوائجهم ، وتيسير أمورهم ، وشفاء أمراضهم ، ونماء حرثهم وزرعهم ، وهلاك أعدائهم ، وغير ذلك من المصالح ، هم عن صراط التوحيد ناكبون ، وعن ذكر الله معرضون

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة « وإياك نستعين » إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة فى الدنيا والآخرة . (أحدهما) أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد فى إتقانها ما استطعنا ، لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل يبذل فيه المرء طاقته فلم

يوفه حقه ، أو يخشى أن لا ينجح فيه ، فيطلب المعونة على اتمامه وكماله ، فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه ، ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز على النهوض به وحده ، يطلب المعونة من غيره على رفعه ، ولكن بعد استفراغ القوة فى الاستقلال به ، وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية ، وركن من أركان السعادة الأخروية . (وثانيهما) ما افاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك ، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص ، الذى يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الاغيار ، ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين ، والشيوخ الدجالين ، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين ، من الأحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حرا خالصاً وسيداً كريماً ، ومع الله عبداً خاضعاً « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » .

وأقول أيضا : إن عبادة الله تعالى هى غاية الشكر له فى القيام بما يجب لألوهيته ، واستعانته هى غاية الشكر له فى القيام بما يجب لربوبيته ، أما الأول فظاهر لأنه هو الاله الحق فلا يعبد بحق سواه ، وأما الثانى : فلأنه هو المربى للعباد الذى وهب لهم جميع ما تكمل به تربيتهم الصورية والمعنوية . ومن هنا تعلم أن إيراد ذكر العبادة والاستعانة بعد ذكر اسم الجلالة الأعظم . واسم الرب الاكرم ، انما هو لترتبهما عليهما من قبيل ترتيب النشر على اللف . والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله وتحل محله ، وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة . ولذلك جمع القرآن بينهما فى مثل قوله تعالى (ولله غيب السموات والأرض و إليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه) فهذه الاستعانة هى ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة ، فان من معنى العبادة : الشعور بأن السلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب العامة ، الموهو بة من الله تعالى لعباده كافة ، هى لله وحده ، كما تنطق به الآية التى استشهدنا بها آنفا على قرن العبادة بالتوكل ، فمن كان موحدا خالصا لا يستعين بغير الله تعالى قط ، فما كان من أنواع المعونة داخلا فى حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلبا من الله تعالى ، ولكنه يحتاج فى تحقق ذلك إلى قصد وملاحظة وشهود قلبي ، وما كان غير

داخل فيها يتوجه فى طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب، و بهذا البيان تعلم أنه لا منافاة بين التوحيد والتوكل و بين الأخذ بالاسباب واقامة سنن الله تعالى فيها، بل الكمال والأدب فى الجميع بينهما ، فالسيد المالك إذا نصب لعبده وخدمه مائدة يأكلون منها غدوا وعشيا، وجعل لهم خدما يقومون بأمرها، لا يكون طلب الطعام منه إلا بالاختلاف إلى المائدة ، و إنما ينبغى أن لا يغفلوا بها و بخدمها عن ذكر صاحب الفضل الذى أنشأها بماله وسخر أولئك الخدم الآكلين عليها ، ولا عن حمده وشكره ، فهذا مثال مائدة الكون بأسبابه ومسبباته . والعبد إذا احتاج شيئا من الأشياء التى لم يجعلها سيده مبذولة لجميع عبيده فى كل وقت ، طلبه منه دون سواه ، فان أظهر الحاجة إلى غيره كان ذلك من قلة ثقته بمولاه ، وجعل ذلك الغير فى مرتبته أو أجدر منه بالفضل. هذا فى العبيد مع السادة الذين لهم نظراء وأنداد ، فكيف إذا كان العبد الذى يتوجه إلى غير مولاه ، لا يجد من يتوجه اليه سواه ، إلا أمثاله من العبيد المحتاجين إلى المولى مثله ، لأنه هو السيد الصمد ، الذى ليس له كفؤا أحد ؟.

ثم إن لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى الاعانة على شىء له فيه كسب ليعينه على القيام به ، وفى هذا تكريم للانسان بجعل عمله أصلا فى كل ما يحتاج اليه لإتمام تربية نفسه وتزكيتها ، و إرشاد له إلى أن ترك العمل والكسب، ليس من سنة الفطرة ولا من هدى الشريعة ، فمن تركه كان كسولا مذموما لا متوكلا محمودا . و بتذكيره من جهة أخرى بضعفه لكيلا يغتر فيتوهم أنه مستغن بكسبه عن عناية ربه ، فيكون من الهالكين فى عاقبة أمره

إذا تدبرت هذا فهمت منه نكتة من نكت تقديم العبادة على الاستعانة وهى أن الثانية ثمرة للأولى. ولا ينافى هذا أن العبادة نفسها مما يستعان عليه بالله تعالى ليوفق العابد للاتيان بها على الوجه المرضىّ له عز وجل. لا منافاة بين الأمرين لأن الثمرة التى تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التى تخرج منها شجرة أخرى . فالعبادة تكون سببا للمعونة من وجه ، والمعونة تكون سببا للعبادة من وجه آخر ، كذلك الأعمال تكون الأخلاق التى هى مناشىء الأعمال ، فكل منهما سبب ومسبب وعلة ومعلول ، والجهة مختلفة فلا دور فى المسألة

وأقول: ايضا إن نكتة تقديم « إياك » على الفعلين « نعبد، ونستعين » هى إفادة الاختصاص والحصر على المشهور الذى جرى عليه الأستاذ الإمام كغيره فالمعنى إذاً: نعبدك ولا نعبد غيرك ونستعينك ولا نستعين بسواك. وقد استخرج له بعض الغواصين على المعانى نكتتا أخرى (منها) أن « إياك » ضمير راجع إلى الله تعالى وقيل إن « إيّا » اسم ظاهر مضاف إلى الضمير الذى هو الكاف، فتقديمه على الوجهين يؤذن بالاهتمام به الذى هو العلة الاصلية العامة للتقديم فى هذه اللغة (ومنها) أنه من الأدب أيضا (ومنها) أن إفادة الحصر بهذا الاسم « أو الضمير » المقدم على الفعل أبلغ من إفادة الحصر بالضمير المتصل الذى يقرن به مايدل على ذلك من الكلم، كقولك: إنما نعبدك وإنما نستعينك، أو نستعين بك وحدك. وإعادة إياك مع الفعل الثانى يفيد أن كلا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات. فلا يستلزم كل منهما الآخر. ذلك بأن الاستعانة بالله تعالى يجب أن تكون عامة فى كل شىء ومن الناس من لا يستعين بالله على شىء من أعماله الاختيارية، زعما منهم أنهم يستقلون بذلك بدون إعانة خاصة منه تعالى كالقدرية. وأفضل الاستعانة: ما كان على الطاعة والخير. وقد أخذ النبى (ص) بيد معاذ يوما وقال «والله إنى لأحبك. أوصيك يامعاذ لاتدعنّ فى دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». وقد روينا هذا المعنى فى الأحاديث المسلسلة. قال لى شيخنا أبو المحاسن محمد القاوقجى فى طرابلس الشام « إنى أحبك، فقل اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » قال لى شيخنا محمد عابد السندى فى الحرم النبوى الشريف « إنى أحبك » الخ. وذكر سنده إلى النبى (ص)

﴿ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

ذكر الأستاذ الإمام أولا ما قالوه فى معنى الهداية لغة من أنها الدلالة بلطف على مايوصل إلى المطلوب، ثم بين أنواعها ومراتبها فقال ماملخصه: منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته (أولاها) هداية الوجدان الطبيعى والالهام الفطرىّ، وتكون للاطفال منذ ولادتهم، فإن الطفل بعد ما يولد

يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالبا له بفطرته، وعندما يصل الثدى إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه (الثانية) هداية الحواس والمشاعر وهى متممة للهداية الأولى فى الحياة الحيوانية، ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم ، بل هو فيهما أكمل من الانسان ،فإن حواس الحيوان و إلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الانسان فان ذلك يكمل فيه بالتدريج فى زمن غير قصير ، ألا تراه عقب الولادة لا تظهر عليه علامات ادراك الأصوات والمرئيات ، ثم بعد مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات ، فيحسب البعيد قريبا فيمد يديه إليه ليتناوله و إن كان قمر السماء ، ولا يزال يغلط حسه حتى فى طور الكمال

(الهداية الثالثة: العقل)خلق الله الانسان ليعيش مجتمعا ولم يعط من الالهام والوجدان ما يكفى مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل فان الله قد منحهما من الالهام ما يكفيها لأن تعيش مجتمعة يؤدى كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها، و يؤدى الجميع وظيفة العمل للواحد، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد

أما الانسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الالهام ، فجاءه الله هداية هى أعلى من هداية الحس والالهام، وهى العقل الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر و يبين أسبابه ، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرا ،و يرى العود المستقيم فى الماء معوجا ، والصفراوى يذوق الحلو مرا . والعقل هو الذى يحكم بفساد مثل هذا الادراك .

(الهداية الرابعة : الدين) يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس،وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية و يسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال ، فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى تورده موارد الهلكة . فاذا وقعت المشاعر فى مزالق الزلل ، واسترقت الحظوظ والأهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل ،فكيف يتسنى للانسان مع ذلك أن يعيش سعيدا ؟ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده ،وما هو بعائش وحده، وكثيرا ما تتطاول به إلى ما فى يد غيره ، فهى لهذا تقتضى أن يعدو بعض أفراده على بعض ،فيتنازعون و يتدافعون، و يتجادلون و يتجالدون ،و يتواثبون و يتناهبون

حتى يغنى بعضهم بعضا ، ولا تغنى عنهم تلك الهدايات شيئا ؟ فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم فى ظلمات أهوائهم ، إذا هى غلبت على عقولهم ، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها ، ويكفوا أيديهم عما وراءها . ثم إن مما أودع فى غرائز الانسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينتسب إليها كل مالا يعرف له سببا . لأنها هى الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده ، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة ، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذى خلقه وسواه ، ووهبه هذه الهدايات وغيرها ، وما فيه سعادته فى تلك الحياة الثانية ؟ كلا إنه فى أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة ـ الدين ـ وقد منحه الله تعالى إياها

أشار القرآن إلى أنواع الهداية التى وهبها الله تعالى للانسان فى آيات كثيرة منها قوله تعالى « وهديناه النجدين » أى طريق السعادة والشقاوة والخير والشر . قال الاستاذ الإمام : وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين . ومنها قوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » أى دللناهم على طريقى الخير والشر ، فسلكوا سبل الشر المعبر عنه بالعمى . وذكر غير هاتين الآيتين مما فى معناها ، ثم قال :

بقى معنا هداية أخرى وهى المعبر عنها بقوله تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره ، فالهداية فى الآيات السابقة بمعنى الدلالة ، وهى بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين المهلك والمنجى ، مع بيان ما يؤدى إليه كل منهما ، وهى مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر . وأما هذه الهداية فهى أخص من تلك والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير فى طريق الخير والنجاة مع الدلالة ، وهى لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين[1]

(١) هذا الفرق بين معنى الهداية معروف فى اللغة وبه يجاب عن التناقض الظاهرى فى قوله تعالى (٢٨ : ٥٦ وانك لتهدى الى صراط مستقيم) وقوله تعالى (٤٢ : ٥٣ انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وقوله تعالى (٢ : ٢٧٢ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) فالهداية التى أثبتها للنبى ﷺ هى الدلالة على الخير والحق ، والتى نفاها عنه هى الثانية التى بمعنى الاعانة والتوفيق

ولما كان الانسان عرضة للخطإ والضلال فى فهم الدين وفى استعمال الحواس والعقل على ماقدمنا كان محتاجا إلى المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه فى قوله « إهدنا الصراط المستقيم » فمعنى « إهدنا الصراط المستقيم » دلنادلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطإ . وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه ، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شىء سواه ،

ثم بين معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه وقراءة الصراط بالسين المهملة واشتقاقها على نحو مافى كتب اللغة والتفسير ، ومعنى المستقيم وهوضد المعوج وقال : ليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التعج والتعاريج بل المراد كل مافيه انحراف عن الغاية التى يجب أن ينتهى سالكه إليها . والمستقيم فى عرف الهندسة أقرب موصل بين طرفين ، وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوى كما هوظاهر بالبداهة . و إنما قلنا إن المراد بمقابل المستقيم كل مافيه انحراف لأن كل من يميل و ينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها فى خط ذى تعاريج ، لأن هذا الأخير قد يصل الى الغاية بعد زمن طويل . ولكن الأول لا يصل إليها أبدا . بل يزداد عنها بعدا كلما أوغل فى السير بانهماك فيه

وقد قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل أو الحدود ونحن نقول إنه جملة ما يوصلنا الى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . لم سمى الموصل إلى السعادة من ذلك صراطا وطريقا ؟ خذ الحق مثلا وهو العلم الصحيح بالله و بالنبوة و بأحوال الكون والناس ترمعني الصراط فيه واضحا ، لأن السبيل أو الصراط ماأسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التى أقصدها كذلك الحق الذى يبين لى الواقع الثابت فى العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة فالطريق الواضح للحس ، يشبه الحق للعقل والنفس ، سير حسى ، وسير معنوى ، كذلك إذا اعتبرت هذا المعنى فى الحدود والأحكام تجده واضحا ـ قسمت أحكام الأعمال إلى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان هذا مريحا لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا ، فبيان الأحكام بالهداية الكبرى

وهى الدين كالطريق الواضح يسلك بالعمل . ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها إلى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يرديهم . وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر من علمائه . وضرب الاستاذ الإمام لذلك مثلا أحد الشيوخ المتفقهين سرق كتابا من وقف أحد الأروقة فى الأزهر مستحلا له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به وهو يحصل بوجود الكتاب عنده وأنه قد يفوت النفع ببقائه فى الرواق حيث وضعه الواقف إذ لا يوجد فيه من يفهمه مثله بزعمه !! واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل ليس بقليل ولذلك كان الإنسان محتاجا أشد الاحتياج إلى العناية الالهية الخاصة لاجل الاستقامة والسير فى تلك الهدايات الأربع سيرا مستقيما يوصل إلى السعادة . لهذا نبهنا الله جل شأنه أن نلجأ إليه ونسأله الهداية ليكون عونا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا ، وأن تكون استعانتنا فى ذلك به لا بسواه ، بعد أن نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد فى معرفة ما أنزل إلينا من الشريعة والأحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك . وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على خيرى الدنيا والآخرة . فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة فى قوله « وإياك نستعين » .

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)

(قال الاستاذ) الصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الحق ولكنه تعالى ما بينه بذلك كما بينه فى نحو سورة العصر[1] وانما بينه باضافته إلى من سلك هذا الصراط كما قال فى سورة الانعام « فبهداهم اقتده » وقد قلنا إن الفاتحة مشتملة على اجمال مافصل فى القرآن حتى من الاخبار ، التى هى مثل الذكرى والاعتبار ، وينبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها تنطوى فى اجمال هذه الآية

(قال) فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى . ونحن نقول ان الفاتحة أول سورة نزلت كما قال الامام على رضى الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره ، لأنه تربى فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم وأول من

(١) قد فسر الاستاذ الامام سورة العصر تفسيرا يظهر به صدق قول الامام الشافعي لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس ـ تفسير لا تجد مثله فى كتاب . وقد طبعناه على حدته

آمن به ، و إن لم تكن أول سورة على الاطلاق فلا خلاف فى أنها من أوائل السور (كما مر فى المقدمة) ولم يكن المسلمون فى أول نزول الوحى بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وما هداهم إلا من الوحى ، ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذه السبيل سبيل من أنعم الله عليهم من قبلهم ، فأولئك غيرهم ، و إنما المراد بهذا ماجاء فى قوله تعالى « فبهداهم اقتده » وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة . فقد أحال على معلوم أجمله فى الفاتحة وفصله فى سائر القرآن بقدر الحاجة . فثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص ، وتوجيه الأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم ، فى كفرهم و إيمانهم ، وشقاوتهم وسعادتهم ، ولاشىء يهدى الانسان كالمثلات والوقائع . فاذا امتثلنا الأمر والإرشاد ، ونظرنا فى أحوال الأمم السالفة ، وأسباب علمهم وجهلهم ، وقوتهم وضعفهم ، وعزهم وذلهم ، وغير ذلك مما يعرض للأمم ـ كان لهذا النظر أثر فى نفوسنا يحملنا على حسن الأسوة والاقتداء بأخيار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكن فى الأرض ، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار . ومن هنا ينجلى للعاقل شأن علم التاريخ ومافيه من الفوائد والثمرات ، وتأخذه الدهشة والحيرة إذا سمع أن كثيرا من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ، و يرغبون عنه ، و يقولون إنه لا حاجة اليه ولا فائدة له . وكيف لايدهش و يحار والقرآن ينادى بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو اليه هذا الدين ؟ « و يستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات »

وههنا سؤال وهو : كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام و إرشادات لم تكن عندهم ، و بذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم ، وأصلح لزماننا وما بعده ؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله فى جميع الأمم واحد ، و إنما تختلف الأحكام بالفروع التى تختلف باختلاف الزمان ، وأما الأصول فلا خلاف فيها . قال تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم » الآية وقال تعالى « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » الآية . فالايمان بالله و برسله و باليوم الآخر ، وترك الشر وعمل البر

والتخلق بالأخلاق الفاضلة، مستو فى الجميع . وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه ، والاعتبار بما صاروا اليه ، لنقتدى بهم فى القيام على أصول الخير . وهو أمر يتضمن الدليل على أن فى ذلك الخير والسعادة . على حسب طريقة القرآن فى قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول ، والجمع بين السبب والمسبب . وتفصيل الأحكام التى هذه كلياتها بالاجمال نعرفه من شرعنا وهدى نبينا عليه الصلاة والسلام اه بتفصيل و إيضاح

وأزيد هنا أن فى الاسلام من ضروب الهداية ما قد يعد من الأصول الخاصة بالاسلام ، و يرى أنه مما يستدرك على ماقرره الأستاذ الامام ، كبناء العقائد فى القرآن على البراهين العقلية والكونية ، و بناء الأحكام الأدبية والعلمية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار والمفاسد ، وكبيان أن للكون سننا مطردة تجرى عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة ، وكالحث على النظر فى الأكوان ، للعلم والمعرفة بما فيها من الحكم والأسرار ، التى يرتقى بها العقل وتتسع بها أبواب المنافع للانسان ، وكل ذلك مما امتاز به القرآن . والجواب عن هذا أنه تكميل لأصول الدين الثلاث التى بعث بها كل نبى مرسل لجعل بنائه رصينا مناسبا لارتقاء الانسان . وأما تلك الأصول وهى الايمان الصحيح وعبادة الله تعالى وحده وحسن المعاملة مع الناس فهى التى لا خلاف فيها

وأما وصفه تعالى الذين أنعم عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فالمختار فيه أن المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه ، انصرافا عن الدليل ، ورضاء بما ورثوه من القيل ، ووقوفا عند التقليد ، وعكوفا على هوى غير رشيد ، وغضب الله يفسرونه بلازمه وهو العقاب ، ووافقهم الأستاذ الامام ، والذى ينطبق على مذهب السلف أن يقال أنه شأن من شؤونه تعالى يترتب عليه عقوبته وانتقامه ـ وأن الضالين هم الذين لم يعرفوا الحق البتة ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح الذى يقرن به العمل كما سيأتى تفصيله . وقرن المعطوف فى قوله «ولا الضالين» بلا لما فى « غير » من معنى النفى أى وغير الضالين ففيه تأكيد للنفى . وهو يدل على أن الطوائف ثلاث : المنعم عليهم، والمغضوب عليهم والضالون . ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضا لأنهم

يتبدهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها فلا يصلون منها إلى مطلوب ، ولا يهتدون فيها إلى مرغوب ، ولكن فرقا بين من عرف الحق فأعرض عنه على علم ، و بين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق لا يهتدى إلى الجادة الموصلة منها ، وهم من لم تبلغهم الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق ، فهؤلاء هم أحق باسم الضالين ، فان الضال حقيقة هو التائه الواقع فى عماية لا يهتدى معها إلى المطلوب ، والعماية فى الدين هى الشبهات التى تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ

الأستاذ الامام : انضالون على أقسام (الأول) من لم تبلغهم الدعوة إلى الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لا يسوق إلى النظر . فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل ، وحرموا رشد الدين ، فان لم يضلوا فى شؤونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما تطلب به نجاة الأرواح وسعادتها فى الحياة الأخرى . على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة ما به يسعدون فى الدنيا والآخرة معاً ، فمن حرم الدين حرم السعادتين ، وظهر أثر التخبط والاضطراب فى أعماله المعاشية ، وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال والخبط عادة ، سنة الله فى هذا العالم ولن تجد لسنته تبديلا . أما أمرهم فى الآخرة فعلى أنهم لن يساووا المهتدين فى منازلهم ، وقد يعفو الله عنهم وهو الفعال لما يريد

وأزيد فى إيضاح كلام الأستاذ أن الذين حرموا هداية الدين لا يعقل أن يؤاخذوا فى الآخرة على ترك شىء مما لا يعرف إلا بهذه الهداية . وهذا هو معنى كونهم غير مكلفين ، وعليه جمهور المتكلمين ، لقوله تعالى فى سورة الاسراء « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ومن قال إنهم مكلفون بالعقل لا يظهر وجه لقوله إلا إذا أراد أن حالهم فى الآخرة تكون على حسب ارتقاء أرواحهم بهداية العقل وسلامة الفطرة إذ لا شك أن من لم يبعث فيهم رسول يتفاوتون فى إدراكهم وأعمالهم بتفاوت استعدادهم الفطرى وما يصادفون من حسن التربية وقبحها . وبهذا يجمع بين القولين فى تكليفهم وعدمه أو يفصل بينها . وما يعطيهم الله تعالى إياه فى الآخرة على حسب حالهم فى الخير والشر والفضيلة والرذيلة — يكون جزاء عادلا

على أعمالهم الاختيارية ويزيدهم من فضله إن شاء . وسأفصل هذا المعنى فى تفسير الآيات المنزلة فيه إن شاء الله تعالى . وأعود الآن إلى اتمام سياق الأستاذ ، قال:

(القسم الثانى) من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر ، فساق همته إليه ، واستفرغ جهده فيه ، ولكن لم يوفق إلى الايمان بما دعى إليه ، وانقضى عمره وهو فى الطلب ، وهذا القسم لا يكون إلا أفراد متفرقة فى الأمم ولا يعم حاله شعباً من الشعوب ، فلا يظهر له أثر فى أحوالها العامة ، وما يكون لها من سعادة وشقاء فى حياتها الدنيا . أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الاشاعرة إلى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى ، وينقل صاحب هذا الرأى مثله عن أبى الحسن الاشعرى. وأما على رأى الجمهور فلا ريب فى أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذى أنكر التنزيل ، واستعصى على الدليل ، وكفر بنعمة العقل ، ورضى بحظه من الجهل،

(القسم الثالث) من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها ، بدون نظر فى أدلتها ولا وقوف على أصولها ، فاتبعوا أهواءهم فى فهم ما جاءت به من أصول العقائد ، وهؤلاء هم المبتدعة فى كل دين ، ومنهم المبتدعون فى دين الاسلام ، وهم المنحرفون فى اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول ، ففرقوا الأمة إلى مشارب ، يغص بمائها الوارد ، ولا يرتوى منها الشارب ، (قال) وانى أشير إلى طرف من آثارهم فى الناس : يأتى الرجل إلى دوائر القضاء فيستحلف بالله العلى العظيم ، أو بالمصحف الكريم ، وهو كلام الله القديم ، أنه ما فعل كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه ، فيأتيه المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقدهم الولاية ، فيتغير لونه ، وتضطرب أركانه ، ثم يرجع فى أليته ، ويقول الحق ، ويقر بأنه فعل ما حلف أولا أنه لم يفعله ، تكريماً لاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة ، إذا حلف باسمه كاذبا . فهذا ضلال فى أصول العقيدة يرجع إلى الضلال فى الإيمان بالله تعالى وما يجب له من الواحدانية فى الافعال ، ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال فى العقائد الاصلية بسبب البدع التى عرضت على دين الاسلام لطال المقال ، واحتيج إلى وضع مجلدات فى وجوه الضلال ، ومن أشنعها أثرا ، وأشدها ضرراً ،

خوض رؤساء الفرق منهم فى مسائل القضاء والقدر ، والاختيار والجبر ، وتحقيق الوعد والوعيد ، وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد .

إذا وزنا مافى أدمغتنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها أولا فيه يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين . وأما إذا أدخلنا مافى أدمغتنا فى القرن وحشرناها فيه أولا فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال لاختلاط الموزون بالميزان. فلا يدرى ماهو الموزون من الموزون به ـ أريد أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين ، لا أن تكون المذاهب أصلا والقرآن هو الذى يحمل عليها ، و يرجع بالتأويل أو التحريف إليها ، كما جرى عليه المخذولون ، وتاه فيه الضالون .

(القسم الرابع) ضلال فى الأعمال ، وتحريف للاحكام عما وضعت له ، كالخطإ فى فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات ، والخطإ فى فهم الأحكام التى جاءت فى المعاملات ، ولنضرب لذلك مثلا : الاحتيال فى الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضى قليل من الحول الثانى ، حتى لاتجب الزكاة فيه ، و يظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ، ونجا من غضب من لاتخفى عليه خافية ، ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركناً من أهم أركان دينه ، وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض مايذهب به و يمحو أثره ، وهو محال عليه جل شأنه ـ

ثلاثة أقسام من هذا الضلال أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها فى الأمم فتختل قوى الادراك فيها ، وتفسد الأخلاق ، وتضطرب الأعمال ، و يحل بها الشقاء ، عقوبة من الله لابد من نزولها بهم ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنته تحويلا . و يعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها لما أحدثته فى عقائدها وأعمالها مما يخالف سُنَنه ، ولا يتبع فيه سَنَنه . لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده ، وتقويم العقول والأعمال بفهم ماهدانا إليه ، وأن يجنبنا طرق أولئك

الذين ظهرت فيهم آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه سواء كان ذلك عمداً وعناداً ، أو غواية وجهلا

إذا ضلت الأمة سبيل الحق ولعب الباطل بأهوائها ، ففسدت أخلاقها واعتلت أعمالها ، وقعت فى الشقاء لامحالة ، وسلط الله عليها من يستذلها و يستأثر بشؤونها ، ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب ، و إن كانت ستلاقى نصيبها منه أيضاً ، فإذا تمادى بها الغى وصل بها إلى الهلاك ، ومحى أثرها من الوجود ، لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر فى أحوال من سبقنا ، ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الأمم لنعتبر ونميز بين مابه تسعد الأقوام ومابه تشقى . أما فى الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال فى هذه الحياة الدنيا ، فقد يستدرج الضال من حيث لايعلم ، و يدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه ، و إنما يلقى جزاءه « يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » اه

فوائد فى تفسير الفاتحة

كان غرضنا الأول من كتابة تفسير الفاتحة ونشره فى المنار هو بيان ما نستفيده من دروس شيخنا الأستاذ الإمام ، مع شىء مما يفتح الله به علينا بالاختصار فلذلك اختصرنا فيما كتبناه أولا ، ثم لما طبعنا تفسير الفاتحة على حدته مرة ثانية زدنا فيه بعض زيادات . وكان بدا لنا أن نجعل هذا التفسير مطولا مستوفى . ولهذا زدنا فى تفسير الفاتحة هنا زيادات كثيرة كما نبهنا على ذلك فى المقدمة . و بعد الفراغ من طبعه رأينا أن نعززه بالفوائد الآتية :

(حكمة إيثار ذكر الربوبية والرحمة فى أول الفاتحة على سائر الصفات)

قد علمت أن اسم الجلالة (الله) هو اسم الذات الجامع لمعانى الصفات العلياء وسائر الأسماء الحسنى ، والأصول من هذه الأسماء والصفات التى يرجع إليها غيرها وتعود إليها معانيها ولو بطريق اللزوم أربعة . اثنان منها ذاتيان وهما (الحى القيوم)

والاثنان الآخران فعليان وهما الرب والرحمن والرحيم ، و بتعبير أظهر أو أصح اثنان منهما لايتعلقان بتدبير الخلق واثنان يتعلقان به ، فالحى ذو الحياة وهى بأعم معانيها الصفة الوجودية التى هى الأصل فى معقولنا لجميع صفات الكمال فى الوجود من صفات ذات وصفات أفعال كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وهى الصفات التى يسميها علماء الكلام صفات المعانى و يجعلون عليها مدار معرفة الله تعالى مع الصفات السلبية التى يراد بها تنزيهه سبحانه وتعالى عما لايليق من النقص ومشابهة الخلق وكالرحمة والحلم والغضب والعدل والعزة والخالقية والرازقية الخ وكمال الحياة يستلزم الاتصاف بهذه الصفات و بغيرها من صفات الكمال .

والحياة فى الخلق قسمان : حسية ومعنوية ، فالأولى الحياة النباتية ، والحياة الحيوانية ، ولكل منهما صفات لازمة لها أعلاها فى الحياة الثانية حياة الإنسان التى من خواصها العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وغير ذلك مما يفقده بالموت . والثانية الحياة العقلية والعلمية والروحية الدينية . ومن الشواهد القرآنية على هذه الحياة قوله تعالى (لينذر من كان حيًّا) وقوله (استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم) وكمال هذه الحياة للبشر لايكون إلا فى الآخرة و إنما يكون الاستعداد له فى الدنيا بتزكية النفس بالعلم والعمل .

وحياة الخالق تعالى أعلى وأكمل من حياة جميع خلقه من الجن والإنس والملائكة وهى لاتشبهها (ليس كمثله شىء) و إنما نفهم من إطلاقها اللغوى مع التنزيه أنها الصفة الذاتية الواجبة الأزلية الأبدية التى يلزمها اتصافه بما وصف به نفسه من صفات الكمال بدونها فهى لايتوقف تعقلها على غيرها من الصفات و يتوقف تعقل جميع الصفات عليها وعبر عنها بعضهم بأنها تصحح له الاتصاف بصفات المعانى .

وأما القيوم فأحسن مافيل فى تفسيره مافى معجم (لسان العرب) وهو القائم (أى الثابت المتحقق) بنفسه مطلقا لابغيره وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لايتصور وجود شىء ولا دوام وجوده إلا به اهـ . وسبقه إلى مثله غيره . وقولهم «القائم بنفسه» بمعنى قول المتكلمين « واجب الوجود » أى الذى وجوده ثابت بذاته غير مستمد من وجود آخر فهو يستلزم القدم الذى لا أول له والبقاء

الذى لا آخر له (هو الأول والآخر) وقولهم الذى يقوم به كل موجود معناه أنه لاوجود لشىء غيره ابتداء ولا بقاء إلا به ، فكل وجود سواه مستمد منه وباق بابقائه إياه (٣٥ : ٤١ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) ومن كان هذا وصفه كان بالضرورة قادراً مريداً عليما حكيما ، فإذا كانت الحياة تصحح لصاحبها الاتصاف بهذه الصفات وغيرها وتدل عليها بقيد الكمال دلالة التزام ، فالقيومية تدل عليها دلالة تضمن بغير قيد .

ولجمع هذين الاسمين الكريمين هذه المعانى وغيرها من معانى الكمال الأعلى كان القول بأنهما مع اسم الجلالة - مايعبر عنه بالاسم الأعظم هو القول الراجح المختار عندنا . وإنما فسرنا الاسمين الكريمين هنا وذكرهما استطرادى لايدخل فى تفسير الفاتحة لأن أكثر القراء لايفهم معانيهما التى يدل عليها لفظهما بطرق الدلالة الثلاث . المطابقة والتضمن والالتزام .

واما صفتا الربوبية والرحمة فهما الصفتان الدالتان على أن الله تعالى هو المالك المدبر لأمور العالم كلها ، وعلى أن رحمته تعالى تغلب غضبه وإحسانه الذى هو أثر رحمته يغلب انتقامه ، ومعنى الانتقام لغة الجزاء على السيئات ، فإن كان جزاء على السيئة بمثلها كان انتقام حق وعدل ، وإن كان بأكثر من ذلك كان انتقام باطل وجور ، والله تعالى منزه عن الباطل والجور (ولا يظلم ربك أحداً) بل يتجاوز عن بعض السيئات ، ويضاعف جزاء الحسنات (٤٢ : ٢٥ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون * ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير * ٤ : ٤٠ إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) والآيات فى الجزاء على السيئة بمثلها وعلى الحسنة بعشر أمثالها معروفة ، وكذا آية المضاعفة سبعمائة ضعف وما شاء الله تعالى .

فمن شأن الرب المالك للعباد المدبر لأمورهم المربى لهم أن يجازى كل عامل بعمله ، وينتقم للمظلوم من ظالمه . والجزاء بالعدل مخيف لأكثر الناس بل لجميع الناس ، فإنه مامن أحد إلا ويقصر فيما يجب عليه لربه ولنفسه ولأهله وولده وبنيه ومن دونهم حقاً عليه ومكانة عنده ، ومن حقهم أن يغلب الخوف على الرجاء فى

قلوبهم ، ولذلك قرن سبحانه صفة الربوبية بصفة الرحمة وعبر عنها باسمين لا باسم واحد : اسم الرحمن الدال على منتهى الكمال فى اتصافه بها ، واسم الرحيم الدال على أنها من الصفات النفسيه المعنوية مع تعلقها بالخلق تعلقاً تنجيزيا كقوله تعالى (٤ : ٢٨ ان الله كان بكم رحيما * ٣٣ : ٤٣ وكان بالمؤمنين رحيما) و بهذا التفسير ضممنا فى التفرقة بين الاسمين ما قاله المحقق ابن القيم إلى ما قاله شيخنا رحمهما الله .

وأما دلالة صفتى الربوبية والرحمة على جميع معانى صفات الأفعال الالهية فظاهر فان رب العباد هو الذى يسدى إليهم كل مايتعلق بخلقهم ورزقهم وتدبير شؤونهم من فعل دلت عليه أسماؤه الحسنى كالخالق البارى المصور القهار الوهاب الرزاق الفتاح القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم الرقيب المقيت الباعث الشهيد المحصى المبدىء المعيد المحيي المميت المقدم المؤخر المغنى المانع الضار النافع وأمثالها . والرحمن فى ذاته الرحيم بعباده لا بد أن يكون توابا غفوراً عفواً رؤوفا شكورا حليما وهابا

إذا علمنا هذا تجلت لنا حكمة وصف الله تعالى فى أول فاتحة الكتاب العزيز بالربوبية والرحمة الدالتين على جميع صفات الأفعال دون الحياة والقيومية الدالتين على صفات الذات وغيرها ـ وهى والله أعلم بمراده أن الفاتحة ينظر فيها من وجهين (أحدهما) مادل عليه اسمها هذا أعنى كونها فاتحة ومبدأ للقرآن (وثانيهما) أنها قد شرعت للقراءة فى الصلوات كل يوم، وكل منهما يناسبه البدء بذكر ربوبية الله ورحمته ذلك بأن القرآن كما قال الله فى أول سورة البقرة (هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) الخ الآيات . فهم الذين يتلونه حق تلاوته ، وهم الذين يتدبرونه ويتعظون به ، وهم (الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) فالمناسب فى حقهم أن تكون السورة الأولى وهى المثانى التى يثنونها دائماً فى صلاتهم وفى بدء أورادهم القرآنية المسماة بالختمات مبدوءة بذكر الصفتين الجامعتين لمعانى الصفات التى تتعلق بتدبير الله سبحانه لشؤونهم ، وبعدله فى الحكم بينهم فيما يختصمون فيه، وبمجازاتهم على أعمالهم ، وبرحمته لهم وإحسانه إليهم،

الدالتين على مايجب عليهم من شكره وتخصيصه بالعبادة والاستعانة ، والتوجه إليه فى طلب كمال الهداية ، وهاتان الصفتان هما الربوبية والرحمة . فبدء فاتحة القرآن بذكرهما فى البسملة ثم فى أثناء السورة مرشد لما ذكر ، مذكر للمصلى وللتالى به . وكذا بدء كل سورة منه بالبسملة التى لم يوصف اسم الذات (الله) فيها بغير الرحمة الكاملة الشاملة . هو إعلام منه سبحانه بأنه أنزله رحمة للعالمين ، كما قال مخاطبا لمن أنزله عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ولذلك لم تنزل البسملة فى أول سورة التوبة التى فضحت آياتها المنافقين ، و بدئت بنبذ عهود المشركين ، وشرع فيها القتال بصفة أعم مما أنزل فيما قبلها من أحكامه

وهذا الذى شرحناه يفند زعم بعض المتعصبين الغلاة فى ذم الاسلام بالهوى الباطل أن رب المسلمين رب غضوب منتقم قهار ، ودينهم دين رعب وخوف ، بخلاف دين النصرانية الذى يسمى الرب أبا للاعلام بأنه يعامل عباده كمعاملة الأب لأولاده . وقد أشار شيخنا إلى هذا الزعم وفنده فى تفسير اسم الرب . وسنذكر فى فائدة أخرى المقابلة بين صلاة المسلمين بقراءة الفاتحة وصلاة النصارى بالصيغة المعروفة عندهم بالصلاة الربانية ، وثبت فى الحديث الصحيح إن الرب أرحم بعباده من الأم بولدها الرضيع ، وان جميع ما أودعه فى قلوب خلقه من الرحمة جزء من مائة جزء من رحمته تبارك وتعالى و يجد القارىء تفصيل القول فى سعة الرحمة الالهية فى تفسير قوله عز وجل (٧ : ١٥٦ ورحمتى وسعت كل شىء) من سورة الأعراف

﴿ تفسير صفة الرحمة على مذهب السلف ﴾

ما نقلناه عن شيخنا فى معنى الرحمة (ص ٤٦) تبع فيه متكلمى الاشاعرة والمعتزله ومفسريهم كالزمخشرى والبيضاوى ذهولا . ومحصله أن الرحمة ليست من صفات الذات أو صفات المعانى القائمة بذاته تعالى لاستحالة معناها اللغوى عليه فيجب تأويلها بلازمها وهو الاحسان فتكون من صفات الأفعال كالخالق الرازق . وقال بعضهم يمكن تأويلها بارادة الاحسان فترجع إلى صفة الارادة فلا تكون صفة مستقلة . وهذا القول من فلسفة المتكلمين الباطلة المخالفة لهدى السلف الصالح .

والتحقيق أن صفه الرحمة كصفة العلم والارادة والقدرة وسائر ما يسميه الاشاعرة صفات المعانى ويقولون إنها صفات قائمة بذاته تعالى خلافا للمعتزلة . فان معانى هذه الصفات كلها بحسب مدلولها اللغوى واستعمالها فى البشر محال على الله تعالى إذ العلم بحسب مدلوله اللغوى هو صورة المعلومات فى الذهن ، التى استفادها من إدراك الحواس أو من الفكر ، وهى بهذا المعنى محال على الله تعالى ،فان علمه تعالى قديم بقدمه غير عرض منتزع من صور المعلومات . وكذلك يقال فى سمعه تعالى و بصره وقد عدوهما من صفات المعاني القائمة بنفسه ، والرحمة مثلها فى هذا

فقاعدة السلف فى جميع الصفات التى وصف الله تعالى بها نفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله أن نثبتها له ونمرها كما جاءت مع التنزيه عن صفات الخلق الثابت عقلا ونقلا بقوله عز وجل (ليس كمثله شيء) فنقول إن لله علماً حقيقياً هو وصف له ولـكنه لا يشبه علمنا ، وان له سمعاً حقيقياً هو وصف له لا يشبه سمعنا ، و إن له رحمة حقيقية هى صفة له لا تشبه رحمتنا التى هى انفعال فى النفس وهكذا نقول فى سائر صفاته تعالى فنجمع بذلك بين النقل والعقل . وأما التحكم بتأويل بعض الصفات وجعل إطلاقها من المجاز المرسل أو الاستعارة التمثيلية كما قالوا فى الرحمة والغضب وأمثالها دون العلم والسمع والبصر وأمثالها فهو تحكم فى صفات الله و إلحاد فيها ، فاما أن تجعل كلها من باب الحقيقة مع الاعتراف بالعجز عن إدراك كنه هذه الحقيقة والا كتفاء بالايمان بمعنى الصفة العام مع التنزيه عن التشبيه . و إما أن تجعل كلها من باب المجاز اللغوى باعتبار أن واضع اللغة وضع هذه الالفاظ لصفات المخلوقين فاستعملها الشرع فى الصفات الالهية المناسبة لها مع العلم بعدم شبهها بها من باب التجوز .

وقد عبر الشيخ أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى عن هذا المعنى أفصح تعبير فقال فى كتاب الشكر من الاحياء : ان الله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة يصدر عنها الخلق والاختراع ، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها فى العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى

مبادى إشراقها ، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس ، لا لغموض فى نور الشمس ولكن لضعف أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً ، فاستعاروا لها اسم القدرة ، فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا إن لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع اه

وقد رجع الامام أبو الحسن الاشعرى شيخ المتكلمين والنظار إلى مذهب السلف فى نهاية أمره وصرح فى آخر كتبه وهو (الابانة) بذلك وأنه متبع للامام احمد بن حنبل شيخ السنة والمدافع عنها ، رحمهم الله أجمعين .

﴿ معارضة نصرانية سخيفة ، للفاتحة الشريفة ﴾

عرف كل من ذاق طعم البلاغة العربية من مؤمن وكافر أن القرآن أبلغ الكلام وأفصحه ، لم يكابر فى ذلك مكابر ، ولم يجادل فيه مجادل ، وان الفاتحة من أعلاه فصاحة و بلاغة وجمعاً للمعانى الكثيرة فى الالفاظ القليلة ، واشتمالا على مهمات الدين من صفات الله التى تجذب قلب من تدبرها إلى حبه ، وتنطق لسانه بحمده ، وتعلى همته بتوحيده ، وتهذب نفسه بمعانى أسمائه وصفاته ، واحاطة ربوبيته وملكه ، وتذكره يوم الدين الذى يجزى فيه على عمله ، وتوجه وجهه إلى السير على الصراط المستقيم فى خاصة نفسه ، وفى معاملة الله ومعاملة خلقه ، وتذكره بالقدرة الصالحة فى ذلك بإضافة الصراط الذى يتحرى الاستقامة عليه ، و يسأل الله توفيقه دائما له ، إلى من أسبغ الله عليهم نعمه ، ومنحهم رضوانه ، وجعلهم هداة خلقه بأقوالهم ، وأسوتهم الحسنة فى أفعالهم ، ومثل الكمال فى آدابهم وأخلاقهم ، من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وتحذره من شرار الخلق الذين يؤثرون الباطل على الحق ، و يفضلون الشر على الخير ، على علم منهم بذلك ، وهم المغضوب عليهم ، — أو على جهل به كالذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهم الضالون . وهذا التحذير يتضمن حث

المسلم المتعبد بالفاتحة المكرر لها فى صلاته على العناية بتكميل نفسه بتحرى التزام الحق وعمل الخير ، بأحكام العلم وتربية النفس والتمرن على العمل الصالح .

هذه السورة الجليلة التى ذكرناك أيها القارىء بمجمل مما فصلناه فى تفسيرها يزعم أحد دعاة النصرانية فى هـذا العصر أنها بمعزل من البلاغة بأن كل ما بعد الصراط المستقيم فيها « حشو وتحصيل حاصل » وما قبـله يمكن اختصاره بما لايضيع شيئا من معناه ، كما فعله بعضهم ـ قال هـذا القول داعية من المبشرين المأجورين من قبل جمعيات التبشير الإنكليزية والاميركانية فى كتاب لفقه فى إبطال إعجاز القرآن بزعمه ، بل أنكر بلاغته من أصلها قال :

« وما أحسن قول بعضهم أنه لو قال : الحمد للرحمن ، رب الأكوان ، الملك الديان ، لك العبادة وبك المستعان ، اهـدنا صراط الإيمان . لأوجز وجمع كل المعنى وتخلص من ضعف التأليف والحشو والخروج عن الردىء كما بين الرحيم ونستعين » اه

أقول لقد كان خيراً لهذا المتعصب المأجور لإضلال عوام المسلمين على شرط أن لايذكر اسمه فى كتيبه ، ولا يفضح نفسه بين قومه ، أن يختصر لمستأجريه آلهتهم وكتبهم التى صدت جميع مستقلى الفكر من أقوامهم وشعوبهم عن دينهم بل صدت بعضهم عن كل دين ، فان اختصار الدرارى السبع فى السماء ، أهون من اختصار آيات الفاتحة السبع فى الأرض . وحسب العـالم من فضيحته إيراد سخافته هذه وتشهيره بها لو كان حياً يمشى بين الناس .

وأما العامىّ الجاهل ، الذى قد يغتر بقول كل قائل ، ولا سيما إذا كان فى الطعن بغير دينه ، فربما يحتاج إلى التنبيه لبعض فضائح هذا الاختصار ، وإن كانت لاتخفى على أولى الأبصار ، ونكتفى منه بما يلى :

(١) إن أول شىء اختصره هذا الجاهل المتعصب وجعل ذكره مطعنا فى فاتحة القرآن اسم الجلالة الأعظم (الله) الذى لايغنى عنه سرد جميع أسماء الله الحسنى ! فانه هو اسم الذات ، الملاحظ معه اتصاف تلك الذات بجميع صفات الكمال إجمالا

(٢) إنه اختصر اسم الرحيم وقد بينا فائدته وأن اسم الرحمن لايغنى عنه ،

وأنى لمثله أن يعلمه ؟ ويراجع الفرق بينهما فيما تقدم .

(٣) انه استبدل الأكوان بالعالمين وليس فى هـذا اختصار ، وإنما فيه استبدال الذى هو أدنى ، بالذى هو خير وأولى ، فان الأكوان جمع كون وهو فى الأصل مصـدر لايجمع ، وله معان لايصح إضافة اسم الرب اليها منها الحدث والصيرورة والـكفالة ، ويطلقه عرب الجزيرة على الحرب لعلمهم لايستعملونه فى غيرها ، وأما العالمون فجمع عالم وفى اشتقاقه التذكير بكونه علامة ودليلا على وجود خالقه ، وفى جمعه جمع العقلاء تذكير للقارىء بما فى كلة الرب من معنى تربيته جل جلاله وعم نواله للأحياء ولاسيما الناس ، وكونهم يشكرونه عليها بقدر استعمال عقولهم ، ولذلك قال بعض الأعلام إن لفظ العالمين عام مستعمل هنا فى الخاص وهو عالم البشر ، وراجع سائر تفسيره المتقدم .

(٤) انه استبدل « كلة » الديان بكلمة (يوم الدين) وهى لاتقوم مقامها ، ولا تفيد مافيها من المعانى المطلوبة لذاتها ، فان للديان فى اللغة معانى منها القاضى والحاسب أو المحاسب والقـاهر . وغاية ما يفيده وصف الرب بأنه حاكم يدين عباده ويجزيهم . وأما يوم الدين فانه اسم ليوم معين موصوف فى كتاب الله بأوصاف عظيمة هائلة ، يحاسب الله فيه الخلائق ويحكم بينهم ويجزيهم ، والايمان بهذا اليوم ركن من أركان الدين ، وإضافة ملك ومالك إليه تفيد أن الأمر كله فى ذلك اليوم له وحده فلا يملك أحد لأحد فيه شيئا من نفع ولا من كشف ضر كما تقدم تفصيله فى تفسير الآية — فاستحضار هذه المعانى فى النفس له من التأثير المقوى لعقيدة التوحيد المرغب فى العمل الصالح المرهب الزاجر عن الشر ، ماليس لاسم الديان وحده ، ويكفى الانسان فى الجزم بهـذا مشاورة فكره ، ومراجعة وجدانه ، وإن لم يكن يعلم من فنون البلاغة شيئا ، وهل لهذا المبشر المتعصب فكر ووجدان ، يهديه إلى مايجهل من بلاغة القرآن ؟

(٥و٦) انه اختصر قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) بقوله هو : لك العبادة وبك المستعان . وهو أغرب ماجاء به وسماه إيجازاً ، فانه استبدل أربعاً بأربع ، ولكنها أطول منها بزيادة حرف ، وتنقص عنها فى المعنى ، فأين الإيجاز ؟ إنه مفقود لفظا ومعنى

إذا أراد بقوله : لك العبادة ـ أنها كلها له تعالى فى الواقع ونفس الأمر، فالجملة غير صحيحه . لأن الذين لا يعبدونه وحده من البشر هم الأكثرون، ومنهم النصارى قوم الطاعن فى دين التوحيد وكتاب التوحيد الأعظم (القرآن) المبدلين لآية التوحيد البليغة. و إن أراد أن العبادة مستحقة لله تعالى وحده فالمعنى صحيح ، ولكنه لا يدل على أن القارىء ، ولا واضع الجملة من القائلين بهذا الحق له تعالى . وأما « إياك نعبد » فانها تفيد عرض عبادة القارىء مع عبادة جميع المؤمنين الموحدين عليه جل جلاله ، وتقربهم إليه بأنهم يعبدونه ولا يعبدون غيره

وأحيلك فى الفرق بين تأثير هذا وذاك على الوجدان الذى ذكرتك به فى النقد الذى قبله . دع ما فى عرض المؤمن عبادته واستعانته على ربه فى ضمن عبادة جميع المؤمنين واستعانتهم ، من ملاحظة أخوة الإيمان وتكافل أهله ، ومن هضم الفرد لنفسه ، ورجاء القبول فى ضمن الجماعة ، وغير ذلك مما يعلم من تفسير الآية .

ومثل هذا يقال فى مسألة الاستعانة ، ويمكن الزيادة عليه من جهة المعنى ومن جهة اللفظ ، ومنه اختياره المصدر الميمى الذى هو صيغة إسم المفعول (المستعان) على المصدر الأصلى وهو الاستعانة المناسب للفظ العبادة ، ومن جهة ارتباطه بما بعده ، فان طلبنا للهداية من الاستعانة التى أسندناها إلى أنفسنا .

(٧) استبداله «صراط الإيمان» بالصراط المستقيم ؛ وهذا أعم منه وأشمل ، لأنه يشمل الإيمان والإسلام والإحسان : من العقائد والعبادات والآداب ، مع وصفه بالمستقيم الذى لا عوج فيه ، فان بعض الطرق الموصلة إلى المقاصد التى يسمى سالكها مهتديا إلى مقصده فى الجملة ، قد يكون فيها عوج يعوق هذا السالك ، والمستقيم هو أقرب موصل بين طرفين ، فسالكه يصل إلى مقصده فى أسرع وقت، كذلك الطرق المعنوية ، منها الموصل إلى الغاية وغير الموصل ، ومن الموصل ما يوصل بسرعة لعدم العائق ، وما يعترى سالكه الموانع واقتحام العقبات واتقاء العثرات

(٨) أن وصف الصراط المستقيم بكونه الصراط الذى سلكه خيار عباد الله المفلحين ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، مذكر لقارئه بأولئك

الائمة الوارثين ، الذين يجب التأسى بهم ، والسعى للانتظام فى سلكهم ، والتصريح بكونه غير صراط المغضوب عليهم من المعاندين للحق ، وغير الضالين الزائغين عن القصد ، مذكر للقارىء بوجوب اجتناب سبلهم ، لئلا يتردى فى هاويتهم .

* * *

أين من هذه المقاصد السامية ، الهادية إلى تزكية النفس و إعدادها لسعادة الدنيا والآخرة ، صيغة الصلاة فى ملة هذا المختصر المستأجر ، وهى كما فى انجيل متى (٦ : ٩ — ١٣) « أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ، ولاتدخلنا فى تجربة ، ولكن نجنا من الشرير أمين » اه زاد فى نسخة الأميركان « لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد » وجعلوا هذه الزيادة بين علامتى الكلام الدخيل هكذا ( ) فمن ذا الذى زادها على كلام المسيح ؟

وقد يقول لهم من لايؤمن بأن هذه الصيغة منقولة نقلا صحيحاً عن المسيح عليه السلام ، أو من لايؤمن به نفسه : إنها صلاة ليس فيها من الثناء على الله تعالى مافى فاتحة المسلمين ولا بعضه ، وطلب تقديس اسم الأب و إتيان ملكوته تحصيل حاصل ، فهو لغو لايليق بالعاقل ، وذكره بصيغة الأمر باللام غير لائق ، — إن لم نقل فى انتقاده ما هو أشد من ذلك وأبعد من ذلك عن اللياقة والأدب مع الرب تبارك وتعالى: طلب كون مشيئته على الأرض كمشيئته فى السماء ، وكونها بصيغة الأمر باللام أيضاً ، فمشيئته تعالى نافذة فى جميع خلقه من سمائه وأرضه بالضرورة ، فلا معنى لطلبها ، وطلب المساواة بين السماء والأرض فيها إن أريد به من كل وجه ، فهو تحكم لا يخفى ما يترتب عليه .

وأما طلب الخبز الكفاف فى كل يوم بصيغة الحصر فهو يفيد أن كل همهم وكل مطلبهم من ربهم ولو لدنياهم هو الخبز الذى يكفيهم ، فأين هذا من طلب الهداية إلى الصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة على أكمل وجه ، لكونه نفس صراط خيار الناس دون شرارهم .

وأما طلب المغفرة - فهو على كونه يليق أن يطلب منه تعالى - ينتقد منه تشبيهها بمغفرة الطالب للمذنب المسىء إليه من وجهين (أحدهما) أن مغفرة الله لعبده أجل وأعظم وأعم من مغفرة العبد لمثله (ثانيهما) أن الذى يغفر لجميع المسيئين إليه نادر ؛ ومن المشاهد أن أكثر الناس يجزون على السيئة إما بمثلها ، وإما بأكثر منها ، فكيف يكلف هؤلاء بمخاطبة ربهم بالكذب عليه ، الذى حاصله أنهم يطلبون أن لا يغفر لهم ؛ لأنهم لا يغفرون للمسيئين إليهم .

قد يقولون : نعم نحن نلتزم هذا ، لأن ديننا يوجب علينا أن نغفر لجميع من أذنب وأساء إلينا ، ونعتقد أن ربنا لا يغفر لنا إذا لم نغفر لهم ؛ لأن من علمنا هذه الصلاة قال بعدها (متى ٦ : ١٤ فانه إن غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى ١٥ وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم)

فنقول : هذا التعبير يدل على وجوب مغفرة جميع الذنوب لجميع الناس عامة كانت أو خاصة ، فأين منكم يامعشر النصارى من يفعل ذلك ؟ وهل يوجد فى الألف أو الألوف منكم واحد كذلك ؟ ألسنا نرى أكثركم ومن تعدونهم أرقاكم وتفتخرون بهم كالافرنج لا يغفرون لأحد أدنى زلة ، بل لا يكتفون بعقاب من يسىء إلى أحد منهم إذا كان من غيرهم بمثل ذنبه ، وانما يضاعفون له العقاب أضعافا بل ينتقمون من أمته كلها إذا كانت ضعيفة لا يمكنها أن تصدهم بالقوة ، فهم لا يمنعهم من الجزاء على السيئة بأضعافها من السيئات ولا من ابتداء الظلم والعدوان إلا العجز

(وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة ، والبسملة منها)

فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة أحاديث قولية صحيحة صريحة ، وجرى عليها العمل من أول الإسلام إلى اليوم ، وإن تنازع بعض أهل الخلاف والجدل فى تسمية هذا الواجب فرضاً وعده شرطاً ، وأصح ماورد وأصرحه فيه مارواه الجماعة كلهم من حديث عبادة بن الصامت (رض) أن النبى ﷺ قال « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وفى لفظ رواه الدارقطنى باسناد صحيح « لا تجزىء صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وهو تفسير للفظ الجماعة ؛ فان نفى الصلاة فيه نفى صحتها

ووجهه : أن الحقيقة المؤلفة من عدة أركان ذاتية تنتفى بانتفاء ركن منها ، كقولك: لاوضوء لمن لم يغسل يديه إلى المرفقين ، وقد أجمع المسلمون على العمل بهذا ، فلم يصل النبي ﷺ ولا خلفاؤه وأصحابه ولا التابعون ولا غيرهم من الخلفاء وأئمة العلم صلاة بدون قراءة الفاتحة فيها ، و إنما بحث الحنفية فى تسمية قراءتها فرضا وعدها ركناً بناء على اصطلاحات لهم ردها الجمهور بأدلة صحيحة لامحل لتلخيصها هنا ، وأجابوا عن شبهاتهم النقلية بأجوبة سديدة وأقواها قوله ﷺ للمسيء صلاته « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » قالوا فى الجواب عنه : إنه ثبت فى رواية أخرى أنه قال له « ثم اقرأ بأم القرآن » فهذا مفسر لما تيسر من القرآن ، وأن الفاتحة هى التى كانت متيسرة لجميع المسلمين ، لأنهم كانوا يلقنونها كل من يدخل فى الإسلام ، وقال بعضهم: المراد بما يتيسر منه هنا ما زاد عن الفاتحة ، وفى البخارى عن أبى قتادة «أن النبى ﷺ كان يقرأ الفاتحة فى كل ركعة» والأحاديث المصرحة بأنه كان يقرأ فى الركعة الأولى أم القرآن وسورة كذا - وفى الثانية بعد أم القرآن كذا فى صلاة كذا : كثيرة

وأما كون البسملة آية من الفاتحة ، فأقوى الحجج المثبتة له : كتابتها فى المصحف الامام الرسمى الذى وزع نسخه الخليفة الثالث على الامصار برأى الصحابة وأجمعت عليه الأمة ، وكذا جميع المصاحف المتواترة إلى اليوم ، وانحط حجة علمية كما قال العلامة العضد ، وعليه جميع شعوب العلم والمدنية فى هذا العصر لاحجة عندهم أقوى من حجة الكتابة الرسمية ، ثم إجماع القراء على قراءتها فى أول الفاتحة و إن زعم بعضهم أنها آية مستقلة ، فان هذا رأى ، والعبرة بالعمل ، وهو إذا كان عاما مطرداً من أقوى الحجج . على أن تواترها عن واحد منهم تقوم ما به الحجة على باقيهم وعلى سائر الناس ، فانه إثبات بالتواتر لايعارضه نفى ما . وقد كنا ذكرنا هذه المسألة وآراء أهل الخلاف فيها ونزيدها إيضاحاً فنقول :

قد وردت أحاديث آحادية فى إثبات ذلك ونفيه ترتب عليها اختلاف الفقهاء الذين جعلوا المسألة مسألة مذاهب ، ينصر كل حزب منهم أهل المذهب الذى ينسبون إليه (كل حزب بما لديهم فرحون) ولولا ذلك لاتفقوا ، لأن اثبات

البسملة فى أول الفاتحة فى جميع المصاحف المجمع عليها المتواترة حجة قطعية لاتعارض بأحاديث الآحاد و إن صح سندها .

وأصرح الأحاديث التى استدلوا بها على كون البسملة ليست آية من الفاتحة : مارواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج» يقولها ثلاثا ـ أى كلمة «فهى خداج» أى ناقصة غير تامة كالناقة تلد لغير التمام ـ فقيل لأبى هريرة : إنا نكون وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها فى نفسك ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل ، فاذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله : حمدنى عبدى فإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله: أثنى علىّ عبدى . فإذا قال (مالك يوم الدين) قال : مجدنى عبدى . وقال مرة : فوض إلىّ عبدى . و إذا قال (إياك نعبد و إياك نستعين) قال : هذا بينى و بين عبدى ، ولعبدى ماسأل . فإذا قال(اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : هذا لعبدى ولعبدى ماسأل »

قال النافون : إن الحديث يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة لأنها لو كانت منها لذكرت فى الحديث ، وهو استدلال سلبى لايعارض القطعى المتواتر وهو إثباتها فى المصحف و إجماع القراء على قراءتها معها عند البدء بالختمات ، وثبوت التواتر بذلك ، على أن عدم ذكرها فى الحديث قد يكون لسبب اقتضى ذلك . ومما يخطر فى البال بداهة: أنه كما اكتفى من قسمة الصلاة بالفاتحة دون سائر التلاوة والأذكار والافعال اكتفى من الفاتحة بما لايشاركها فيه غيرها من السور ، إذ البسملة آية من كل سورة غير (براءة) على التحقيق الذى يدل عليه خط المصحف ، وثم سبب آخر لعدم ذكر البسملة فى القسمة : وهو أنه ليس فيها إلا الثناء على الله تعالى بوصفه بالرحمة ، وهو معنى مكرر فى الفاتحة وذكر فى القسمة . والعمدة فى عدم المعارضة أن دلالة الحديث ظنية سلبية و إثبات البسملة إيجابى وقطعى كما تقدم و إذا كان من علل الحديث المانعة من وصفه بالصحة : مخالفة راويه لغيره من

الثقات فمخالفة القطعى من القرآن المتواتر أولى بسلب وصف الصحة عنه على أن هذا الحديث هو المعارض بالأحاديث المثبتة لكون البسملة من الفاتحة .

واستدلوا أيضاً بحديث أبى هريرة المرفوع عند أحمد وأصحاب السنن . قال «إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له،وهى «تبارك الذى بيده الملك »قالوا: و إنما هى ثلاثون بدون البسملة. وأجيب بمثل ماقلناه آنفا من أن عدد آيات السور باعتبار ماهو خاص بالسورة وهو مادون البسملة . ويؤيده ماروى عن أبى هريرة من أن سورة الكوثر ثلاث آيات . وقد روى أحمد ومسلم والنسائي من حديث أنس قال « بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحكك يارسول الله ؟ فقال: نزلت علىّ آنفا سورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر) وهذا الحديث ناطق بأن البسملة من سورة الكوثر مع عدم عدها من آياتها لما ذكرنا ، فكونها آية من الفاتحة أولى وهو أصح من حديث أبى هريرة فى سورة الملك ، لأن البخارى أعله بأن عباسا الجشمى راويه لايعرف سماعه من أبى هريرة .

واستدلوا بالأحاديث الواردة فى عدم قراءة النبى ﷺ وخلفائه لها فى الصلاة . وأصرحها : قول عبد الله بن مغفل « صليت مع رسول الله ﷺ ومع أبى بكر ، ومع عمر ، ومع عثمان. فلم أسمع أحداً منهم يقولها » يعنى البسملة. رواه أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه عن ابن عبد الله بن مغفل وهو مجهول،فقد كان له سبعة أولاد وهذه علة تمنع صحة الحديث. قالوا :وقد تفرد به الجريرى وقيل. إنه قد اختلط بأخرة . وقد يفسر بما ترى فيما قالوه فى الحديث الذى بعده .

وفى معناه حديث أنس فى إحدى الروايات قال « صليت مع النبى ﷺ وأبى بكر ، وعمر ، وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) رواه أحمد ومسلم . قال فى المنتقى : وفى لفظ « صليت خلف النبى ﷺ وخلف أبى بكر وعمر وعثمان فكانوا لايجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم » رواه أحمد والنسائى بإسناد على شرط الصحيح . ولأحمد ومسلم « صليت خلف النبى ﷺ

وأبى بكر وعمر وعثمان ، وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أول قراءة ولا آخرها » ولعبد الله بن أحمد فى مسند أبيه عن شعبة عن قتادة عن أنس قال« صليت خلف رسول الله وخلف أبى بكر وعمر وعثمان فلم يكونوا يستفتحون القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم » قال شعبة قلت لقتادة: أنت سمعته من أنس؟ قال: نعم نحن سألناه عنه. وللنسائى عن منصور ابن زازان عن أنس قال « صلى بنا رسول الله ﷺ فلم يسمعنا قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى بنا أبو بكر وعمر فلم نسمعها منهما » اه

قال الشوكانى فى شرح الحديث : ورواية « فكانوا لايجهرون » أخرجها أيضاً ابن حبان والدارقطنى ، والطحاوى والطبرانى. وفى لفظ لابن خزيمة «كانوا يسرون » ـ وقوله « كانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين » هذا متفق عليه . وإنما انفرد مسلم بزيادة «لايذكرون بسم الله الرحمن الرحيم» وقد أعل هذا اللفظ بالاضطراب ، وفسر بأن جماعة من أصحاب شعبة رووه عنه به، وجماعة رووه عنه بلفظ : فلم أسمع أحداً منهم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم . ثم نقل عن الحافظ أن بعضهم رواه باللفظين ومن خرج كل رواية.

أقول وقد جمعوا بين الروايات بأن المراد بالاستفتاح بالحمد لله الاستفتاح بهذه السورة فقد صح التعبير عنها فى حديث آخر بجملة الحمد لله . . و بأن عدم سماعها سببه عدم الجهر بها ، وقد يكون له سبب آخر وهو البعد عن أول الصف ومن العادة أن يكون صوت القارىء خافتا فى أول القراءة . وسبب ثالث وهو اشتغال المأموم عن السماع بالتحرم ودعاء الافتتاح .

وقد عورض وأعل حديث أنس على اضطراب متنه بما يأتى عنه من مخالفته له فى صفة قراءة النبي ﷺ و بما رواه الدارقطنى وصححه عن أبى سلمة. قال: سألت أنس بن مالك « أكان رسول الله ﷺ يستفتح بالحمد لله رب العالمين، أو ببسم الله رب الرحمن الرحيم ؟ فقال إنك سألتنى عن شىء ماأحفظه وما سألنى عنه أحد قبلك. فقلت : أكان رسول الله ﷺ يصلى فى النعلين؟ قال نعم» قالوا : وعروض النسيان فى مثل هذا غير مستنكر فقد حكى الحازمى عن نفسه أنه حضر جامعاً

وحضره جماعة من أهل التمييز المواظبين فى ذلك الجامع ، فسألهم عن حال إمامهم فى الجهر والإخفات — قال : وكان صيتاً يملأ صوته الجامع — فاختلفوا فى ذلك فقال بعضهم : يجهر ، وقال بعضهم : يخفت اهـ

أقول : ولم يختلف هؤلاء المصلون فى صلاة واحدة ، بل فى جميع الصلوات ، وسبب ذلك الغفلة والناس عرضة لها ، ولاسيما الغفلة عن أول صلاة الإمام ، إذ يكون المأمومون مشغولين بمثل مايشغله من الدخول فيها وقراءة دعاء الافتتاح كما تقدم آنفاً .

وأما أحاديث إثبات كون البسملة من الفاتحة ، فمنها : مارواه البخارى عن قتادة قال : سئل أنس « كيف كانت قراءة النبى ﷺ ؟ فقال : كانت مدّاً ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم . ويمدّ بالرحمن ويمد بالرحيم وروى عنه الدارقطنى من طريقين « أن النبى ﷺ كان يجهر بالبسملة » .

ومنها : حديث أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت « كان يقطع قراءته آية آية : بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » رواه أحمد وأبو داود بهذا اللفظ وغيرهما .

ومنها مارواه النسائى وغيره عن نعيم المجمر . قال « صليت وراء أبى هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم . ثم قرأ بأم القرآن — وفيه يقول إذا سلم : والذى نفسى بيده إنى لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والحاكم ، وقال : على شرط البخارى ومسلم وأقره الحافظ الذهبى . وقال البيهقى : صحيح الإسناد وله شواهد . وقال أبو بكر الخطيب فيه : ثابت صحيح لايتوجه عليه تعليل ، وروى عن أبى هريرة حديثان آخران بمعناه ، وثق بعضهم جميع رجالها وتكلم بعضهم فى بعضهم .

ومنها : حديث على (رض) سئل عن السبع المثانى فقال (الحمد لله رب العالمين) قيل إنما هى ست فقال (بسم الله الرحمن الرحيم) رواه الدارقطنى وإسناده كلهم ثقات لم يطعنوا فى أحد منهم . وله حديثان آخران عنه وعن عمار ابن ياسر فى إثبات جهر النبى ﷺ بالبسملة فى صلاته قد تكلموا فى سندهما .

ومنها : حديث أنس « سمعت رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم »رواه الحاكم وقال : ورواته عن آخرهم ثقات ، وأقره الحافظ الذهبي .

وقد أورد الشوكانى فى نيل الأوطار هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها من الروايات الضعيفة الأسانيد الصحيحة المتون ، وذكر حمل الروايات الصحيحة من أحاديث النفى المعارضة لها على عدم الجهر بالبسملة من باب حمل المطلق على المقيد وهو ترك الجهر ، ثم قال :

« و إذا كان محصل أحاديث نفى البسملة هو نفى الجهر بها ، فمتى وجدت رواية فيها إثبات الجهر قدمت على نفيه . قال الحافظ ـ ابن حجر ـ لا بمجرد تقديم رواية المثبت على النافى ـ أى كما هى القاعدة ـ لأن أنساً يبعد جداً أن يصحب النبى ﷺ مدة عشر سنين و يصحب أبا بكر وعمر وعثمان خمساً وعشرين سنة فلا يسمع منهم الجهر بها فى صلاة واحدة ، بل لكون أنس اعترف بأنه لا يحفظ هذا الحكم ، كأنه لبعد عهده به لم يذكر منه إلا الجزم بالافتتاح بالحمد لله جهراً ، يستحضر الجهر بالبسملة ، فيتعين الأخذ بحديث من أثبت الجهر اه .

أقول : وقد تقدم نص الرواية عنه بنسيان هذا الحكم آنفا فحديثه مضطربا لا يحتج به. قال الحافظ ابن عبد البر بعد سرده روايات حديثه : فى الاستذكار :هذا الاضطراب لا تقوم معه حجة . . وقد سئل عن ذلك أنس فقال : كبرت سنى ونسيت .اه

وقد روى الطبرانى فى الكبير والأوسط فى سبب ترك النبي ﷺ للجهر بالبسملة فى الصلاة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس« أنه ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، وكان المشركون يهزؤن بمكاء وتصدية ، و يقولون : محمد يذكر إله اليمامة — وكان مسيلمة الكذاب يسمى رحمن — فأنزل الله (ولا تجهر بصلاتك) فتسمع المشركين فيهزؤا بك (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تسمعهم . وقد قال فى مجمع الزوائد : إن رجاله موثقون . وقال الحكيم الترمذى . فبقى ذلك إلى يومنا هذا على ذكر الرسم و إن زالت العلة . وجمع به القرطبى بين الروايات .

وقال ابن القيم فى زاد المعاد «إن النبى ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم تارة و يخفيها أكثر مما جهر بها الخ . وهذا القول معقول ، و إذا صح أن سببه ماروا ه الطبرانى واعتمده القرطبى والنيسابورى والحكيم الترمذى يكون ترك الجهر فى أول الإسلام بمكة وأوائل الهجرة والجهر فيما بعده ، وقد علمت مافى حديثى أنس وأبى قتادة المخالفين لهذا .

ولا يغرّن أحداً قول العلماء أن منكر كون البسملة من الفاتحة أو من كل سورة لايكفر ومثبتها لايكفر فيظن أن سبب هذا عدم ثبوتها بالدليل القطعى ، كلا إنها ثابتة ولكن منكرها لايكفر لتأويله الدليل القطعى بشبهة المعارضة التى تقدمت و بينا ضعفها ، وسنزيده بيانا والشبهة تدرأ حد الردة .

وجملة القول أن اختلاف الروايات الآحادية فى الإسرار بالبسملة والجهر بها قوى ، وأما الاختلاف فى كونها من الفاتحة أو ليست منها فضعيف جداً جداً و إن قال به بعض كبار العلماء ذهولا عن رسم المصحف الإمام القطعى المتواتر والقراءات المتواترة التى لايصح أن تعارض بروايات آحادية ، أو بنظريات جدلية وأصحاب الجدل يجمعون بين الغث والسمين و بين الضدين والنقيضين ، وصاحب الحق منهم يشتبه بغيره ، وربما يظهر عليه المبطل بخلابته ، إذا كان ألحن بحجته .

وقد ذكر الرازى فى تفسيره سبع عشرة حجة على إثبات كون البسملة من الفاتحة منها القوية والضعيفة وتصدى له الألوسى محاولا دحضها تعصباً لمذهبه الذى تنحله فى الكبر إذ كان شافعياً فتحول حنفياً تقربا إلى الدولة وصرح بهذا التعصب إذ قال هنا «على المرء نصرة مذهبه والذب عنه» الخ وهذه كبرى زلاته ، المثبتة لعدم استقلاله بعدم طلبه الحق لذاته . حتى إنه مارى فى حجة إثبات البسملة فى أولها بخط المصحف المتواتر فجعلها دليلا على كونها من القرآن دون كونها من الفاتحة ، وهو من تمحل الجدل فلا معنى لكونها آية مستقلة فى القرآن ألحقت بسوره كلها إلا واحدة وليست فى شىء منها ولا فى فاتحته التى اقتدوا بها فى بدء كتبهم كلها ، إنه لقول واهٍ تبطله عبادتهم وسيرتهم ، و ينبذه ذوقهم ، لولا فتنة الروايات والتقليد فتعارض الروايات اغتر به أفراد مستقلون ، و بالتقليد فتن كثيرون ، ولله فى خلقه شئون .

على أن الألوسى حكم وجدانه واستفتى قلبه فى بعض فروع المسألة ، فأفتاه بوجوب قراءة الفاتحة والبسملة فى الصلاة ، وخانه فى كونها آية منها ، وأورد فى حاشية تفسيره على ذلك إشكالا استكبره جد الاستكبار وما هو بكبير ، فنحن نذكر عبارتيه ، ونقفى عليهما بالرد عليه ، قال فى تفسيره روح المعانى :

« وبالجملة يكاد أن يكون اعتقاد كون البسملة جزءاً من سورة [1] من الفطريات (!!) كما لايخفى على من سلم له وجدانه (!!) فهى آية من القرآن مستقلة ولا ينبغى لمن وقف على الأحاديث أن يتوقف فى قرآنيتها ، أو ينكر وجوب قراءتها و يقول بسنيتها ، فوالله لو ملكت لى الأرض ذهبا لا أذهب إلى هذا القول وإن أمكننى بفضل الله توجيهه (!!) كيف وكتب الأحاديث ملأى بما يدل على خلافه . وهو الذى صح عندى عن الإمام ـ يعنى إمامه الجديد أبا حنيفة رحمه الله تعالى ـ والقول بأنه لم ينص بشىء ليس بشىء ، وكيف لاينص إلى آخر عمره فى مثل هذا الأمر الخطير الدائر عليه أمر الصلاة من صحتها أو استكمالها ، و يمكن أن يناط به بعض الأحكام الشرعية ، وأمور الديانات كالطلاق والحلف والعتق. وهو الإمام الأعظم ، والمجتهد الأقدم ، رضى الله عنه » ؟

وكتب فى حاشيته عند قوله : فهى آية من القرآن مستقلة ما نصه :

استشكل بعضهم الإثبات والنفى ؛ فان القرآن لايثبت بالظن ولا ينفى به . وهو إشكال كالجبل العظيم(؟) وأجيب عنه أن حكم البسملة فى ذلك حكم الحروف المختلف فيها بين القراء السبعة قطعية الاثبات والنفى معاً (!!) ولهذا قرأ بعضهم بإثباتها و بعضهم بإسقاطها ، و إن اجتمعت المصاحف على الاثبات ، فإن من القراءات ماجاء على خلاف خطها كالصراط ومصيطر فانهما قرئا بالسين ولم يكتبا إلا بالصاد (وما هو على الغيب بضنين) تقرأ بالظاء ولم تكتب إلا بالضاد ففى

---

(١) كذا فى الأصل المطبوع فى المطبعة الأميرية عن نسخته الخطية . وهو تعبير ركيك كما ترى ، والجزء يصدق ببعض الآية كالذى فى سورة النمل وهو لاخلاف فيه ولا معنى لجعله من قبيل الفطريات . وإنما الذى يقرب منها كونها آية من كل سورة إلا براءة . وأقوى منه كونها آية من الفاتحة .

البسملة التخيير . وتتحتم قراءتها فى الفاتحة عند الشافعى احتياطا (!!) وخروجا من عهدة الصلاة الواجبة بيقين لتوقف صحتها على ما سماه الشرع فاتحة الكتاب . فافهم والله أعلم بالصواب » اهـ

أقول : نعم إن الله أعلم بالصواب ، وقد وفق لعلمه أولى الألباب ، وهم (الذين يستمعون القول : فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب) دون الذين يستمعون القول فيتبعون منه ماوافق رواية فلان ، ورأى فلان ، ويوجبون على أنفسهم نصره ولو بتأويل مامضت به السنة العملية وثبت بنص القرآن ، ولولا عصبية المذاهب عند المقلدين ، والغرور بظواهر بعض الروايات عند الاثريين ، لما اختلف أحد من الفريقين فى هذه المسألة ونحمد الله تعالى أن اختلافهم فيها قولى جدلى لاعملى .

سبحان الله ! ماأعجب صنع الله فى عقول البشر ! أيقول السيد محمود الألوسى العالم الذكى النزاع إلى استقلال الفكر فى كثير من مسائل التفسير ، بالرغم من رضائه بمهانة جهالة التقليد : إن استشكال الجمع بين الإثبات والنفى القطعيين فى مسألة البسملة « إشكال كالجبل العظيم » ؟ ثم يرضى بالجواب عنه بما يقرر به الجمع بين الإثبات والنفى القطعيين .

سبحان الله ! إن الجمع بين النفى والاثبات هو التناقض الحقيقى الذى يعز إيراد مثال للمحال العقلى مثله ، فكيف يصدر القول به عن عالم أو عن عاقل ؟

إن الاشكال الذى نظر إليه المفسر بعينى التقليد العمياوين فرآه كالجبل العظيم : هو فى نفسه صغير حقير ضئيل قمىء خفى كالذرة من الهباء ، أو كالجزء لايتجزأ من حيث كونه لايرى ولا يثبت إلا بطريقة الفرض ، أو كالعدم المحض .

والجواب الحق : أنه لم ينف أحد من القراء كون البسملة من الفاتحة نفياً حقيقياً برواية متواترة عن المعصوم ﷺ تصرح بأنها ليست من الفاتحة ـ كما يقول بعض الناس بشبهة عدم رواية بعض القراء لها ، وشبهة تعارض الروايات الآحادية التى ذكرنا أقواها والمخرج منها ـ أو ليست إلا جزء آية من سورة النمل ، كما زعم من لاشبهة لهم على النفى تستحق أن يجاب عنها

وإنما أثبت بعض القراء بالروايات المتواترة أن البسملة آية من الفاتحة و بعضهم لم يرو ذلك بأسانيده المتواترة ، وعدم نقل الإثبات للشيء ليس نفياً لذلك الشيء لا رواية ولا دراية . وأعم من هذا : ماقاله العلماء من أن بين عدم إثبات الشيء وبين إثبات عدمه بوناً بعيداً كما هو معلوم بالضرورة . ولو فرضنا أن بعضهم روى التصريح بالنفي لجزمنا بأن روايته باطلة لسببها أن بعض رجال سندها اشتبه عليه عدم الاثبات باثبات النفي ، إذ يستحيل عقلا أن يكون الامران المتناقضان قطعيين معاً ، ورواية الاثبات لا يمكن الطعن فيها ، وناهيك وقد عززت بخط المصحف الذى هو بتواتره خطاً وتلقينا أقوى من جميع الروايات القولية وأعصى على التأويل والاحتمال ، وأما القول بأنها آية مستقلة بين كل سورتين للفصل بينهما ما عدا الفصل بين سورتى الأنفال و براءة ، فما هو إلا رأى للجمع بين الروايات الآحادية الظنية المتعارضة ، و يمكن الجمع بغيره مما لا إشكال فيه ، إذ لو كانت البسملة للفصل بين السور لم توضع فى أول الفاتحة ولم تحذف من أول براءة للعلة التى ذكرناها عنهم فى هذا البحث فهى لا تتحقق إلا إذا كانت البسملة من السورة ، وزد على ذلك ما أوردناه من المعانى والحكم فى بدء القرآن بها ، وما صح مرفوعا من كونها هى السبع المثانى

وأما الجواب الذى نقله الألوسى وارتضاه فلا يستغرب صدوره ولا إقراره ممن يثبت الجمع بين النقيضين المنطقيين و يفتخر بأنه يمكنه توجيه مايعتقد بطلانه . على أنه جواب عن إشكال غير وارد ، و بعبارة أخرى ليس جوابا عن إشكال إذ لا إشكال . والخلاف بين القراء فى مثل السراط والصراط ومسيطر ومصيطر ، وضنين ، وظنين ، ليس خلافا بين النفى والاثبات كمسألة البسملة بل هى قراءات ثابتة بالتواتر ، فأما ضنين وظنين فهما قراءتان متواترتان — كمالك وملك فى الفاتحة — كتبت قراءة الضاد فى مصحف أبىّ وهو الذى وزع فى الأمصار وقرأ بها الجمهور ، وقراءة الظاء فى مصحف عبدالله بن مسعود وقرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى . ولكل منهما معنى وليستا من قبيل تسهيل القراءة لقرب المخرج كما سيأتى فى بيان الفرق بين مخرجى الحرفين قريبا ، وأما السراط والصراط ومسيطر ومصيطر فلا فرق بينهما الا تفخيم السين وترقيقه و بكل منهما نطق بعض العرب وثبت به النص فهو من قبيل ما

صح من تحقيق الهمزة وتسهيلها ، ومن الامالة وعدمها ، فلا تنافى بين هذه القراءات فيعد إثبات إحداها نفياً لمقابلتها كما هو بديهى. على أن خط المصحف أقوى الحجج فلو فرضنا تعارض هذه القراءات لكان هو المرجح ، ولكن لا تعارض ولله الحمد

نكتفى بهذا رداً لما فى كلام الآلوسى وأمثاله من الخطأ فان غيره لا يعنينا فى موضوعنا ولا سيما مارجحه عن إمامه وخالف فيه غيره ، وعلله باطلاقهم عليه لقب الامام الأعظم ، وزيادته هو عليهم لقب المجتهد الاقدم ، مع علمه بأن علماء الصحابة والتابعين أقدم منه اجتهاداً ، وأن هذه الألقاب وإن صح معناها لا تقتضى عدم الخطأ ولا عدم النسيان ولا إهمال بعض المسائل المهمة. ونحن يسرنا أن يصح ما ذكره ، وأن يخطىء من أنكره ، فان من المصائب أن يوجد فى المسلمين عالم ينكر ماثبت فى خط المصحف المتواتر كتابة ورواية. وقد نقل الرازى أن أبا حنيفة ليس له نص فى المسألة « وإنما قال : يقرأ البسملة ويسر بها ، ولم يقل إنها آية من أول السورة أم لا . (قال الرازى) وسئل محمد بن الحسن عن بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال : ما بين الدفتين كلام الله . قال (أى السائل له) فلم تسره ؟ قال فلم يجبنى . وقال الكرخى : لا أعرف هذه المسألة بعينها لمتقدمى أصحابنا ، إلا أن أمرهم بإخفائها يدل على أنها ليست من السورة . وقال بعض فقهاء الحنفية : تورع أبو حنيفة وأصحابه عن الوقوع فى هذه المسألة لأن الخوض فى أن البسملة من القرآن أو ليست منه أمر عظيم ، فالأولى السكوت عنه اهـ

أقول : من الخطأ البين الاستدلال بأمر بعض الفقهاء بإخفاء البسملة على كونها ليست من القرآن ، مع الاجماع على أن ما بين دفتى المصحف قرآن منزل من الله . على أن الروايات الصحيحة فى الأحاديث فيها الجهر بالبسملة والاسرار وروايات الجهر أقوى وأبعد عن التعليل والتأويل

وصفوة القول : أن دلالة المصحف أقوى الدلالات ، ترجح على كل ما عارضها من الروايات ، ودلالتها قطعية ، تؤيدها الروايات المتواترة فى إثباتها ، والاجماع العملى على قراءتها ، ولا ينافيها عدم رواية بعضهم لها . فالمسألة قطعية فى نفسها ، وانما جعلوها اجتهادية باختلاف الروايات الآحادية فى قراءتها ، وقد علمت ما فيها والله الموفق للصواب

﴿ فضل الفاتحة وكونها هى السبع المثانى ﴾

قال الله تعالى فى سورة الحجر مخاطباً لخاتم النبيين والمرسلين (١٥ : ٧٥ ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) وقد ثبت فى الحديث الصحيح والآثار الصحيحة عن الصحابة والتابعين ان السبع المثانى هى سورة الفاتحة ، ومعنى كونها مثانى أنها تثنى وتعاد فى كل ركعة من الصلاة لفرضيتها فيها كما تقدم ، وقيل معناه أنها يثنى فيها على الله تعالى بما أمر وقيل غير ذلك

فأما الحديث المرفوع فى تفضيلها وكونها هى المرادة بالسبع المثانى فهو مارواه البخارى فى مواضع من صحيحه وأصحاب السنن عن أبي سعيد بن المعلى وروى نحوه مالك والترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة . ذكر أبو سعيد بن المعلىّ أن النبى ﷺ قال له وهما فى المسجد « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد » وفى رواية قبل أن أخرج ـ (قال) ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل « لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ » فقال « الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » وفى حديث أبى هريرة أنه ﷺ قال لأبى بن كعب « أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى الفرقان مثلها ؟ قال أُبىٌّ ثم أخذ بيدى يحدثنى وأنا أتبطأ مخافة أن يبلغ الباب قبل أن ينقضى الحديث ولما سأله عن السورة قال « كيف تقرأ فى الصلاة ؟ » فقرأت عليه أم الكتاب فقال « انها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » وفيه إزاله إشكال فى حديث أبى سعيد بن المعلى وهو أن ظاهره يوهم أنه لم يكن يعرف الفاتحة مع أنه كان يصلى فى ذلك اليوم وقبله فهو من الأنصار ـ وقد علم من حديث أبى هريرة ان المراد بتعليمه هذه السورة تعليمه ما فيها من الفضيلة على غيرها وكونها هى المرادة بآية سورة الحجر . وأما عطف القرآن على سبعاً من المثانى فهو من عطف الكل على الجزء أو العام على الخاص ، وقيل فى توجيهه غير ذلك.

وقد تعلق برواية « الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى » من قالوا إن البسملة ليست من الفاتحة وعكس الآخرون قائلين إن المراد بالجملة الأولى لفظها على أنه اسم

السورة و إلا لما صح قوله هى السبع المثانى لأنها آية واحدة و إنما السبع المثاني هى آيات الفاتحة السبع وهى ليست سبعاً إلا بعد البسملة آية منها ، فكونها منها ثابت بالقرآن أى بآية سورة الحجر كما فسرها أعلم الناس به وهو الرسول الذى أنزله الله عليه ، وكبار أصحابه والتابعين والحديث يدل على تسميتها بالحمد لله رب العالمين ، إذ لا يصح معناه إلا بذلك

وأما الآثار فقد فصلها السيوطى فى الدر المنثور وأجملها الحافظ فى الفتح مع بيان درجة أسانيدها بقوله : وقد روى الطبرى بإسنادين جيدين عن عمر ثم عن على قال : السبع المثانى فاتحة الكتاب ـ زاد عن عمر «تثنى فى كل ركعة» و بإسناد منقطع عن ابن مسعود مثله ، و بإسناد حسن عن ابن عباس أنه قرأ الفاتحة ثم قال (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) قال هى فاتحة الكتاب ، و بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة ـ ومن طريق جماعة من التابعين : السبع المثانى فاتحة الكتاب . ومن طريق أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال السبع المثانى فاتحة الكتاب قلت للربيع إنهم يقولون : إنها السبع الطول (جمع طولى مؤنث أطول) قال لقد أنزلت هذه الآية وما نزل من الطول شىء . اهـ

يقول محمد رشيد : يعنى أن سورة الحجر التى فيها هذه الآية قد نزلت بمكة قبل السور السبع الطول وهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ـ المدنيات ـ والأنعام والأعراف و يونس المكيات ، كذا قال بعضهم فى السابعة إنها سورة يونس ، وقال آخرون هى الأنفال و براءة — وعدهما سورة واحدة — وقال بعضهم إن الراوى نسى السابعة عن ابن عباس

والقول بأنها السبع الطول ، رواه النسائى والطبرى والحاكم عن ابن عباس بإسناد قوى كما قال الحافظ . ولا حاجة إلى التفصيل فيه فإنه مردود لمخالفته للحديث الصحيح المرفوع ، ولا قول لأحد مع قول الرسول ﷺ ومنه يعلم أن قوة الاسناد لاقيمة لها تجاه الدليل القوى على بطلان متن الرواية

﴿ استدراك على تفسير المغضوب عليهم والضالين ﴾

ورد فى الحديث المرفوع تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى ، رواه أحمد والترمذى وحسنه وابن حبان وصححه وغيرهم ، ونقلنا عن شيخنا الاستاذ الامام (ص ٦٦) عزوه إلى بعضهم ، أى بعض المفسرين ، وهو يريد أن بعض المفسرين اختار أن هذا هو المعنى المراد ، وهو لم يكن يجهل أن هذا روى مرفوعا ولكنه كان يعلم مع هذا أن أكثر المفسرين فسروا اللفظين بما يدلان عليه لغة حتى بعض أهل الحديث منهم، وكأنهم لم يروا أن الحديث صحيح ، فقد قال البغوى الملقب بمحيي السنة فى تفسيره (معالم التنزيل) بعد تفسيرهما بمدلولها اللغوى : وقيل: المغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى ، لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب فقال (من لعنه الله وغضب عليه) وحكم على النصارى بالضلال فقال (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) وقال سهل بن عبد الله : غير المغضوب عليهم بالبدعة ، ولا الضالين عن السنة . اهـ فعبر عن هذا القول بقيل الدال على ضعفه عنده ولم يستدل عليه بالحديث .

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون فى الضلالة لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بـ « لا » ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى اهـ .

وبعد كلام طويل فى إعراب « غير » و « لا » قال : إنما جيء بلا لتأكيد النفى لئلا يتوهم أنه معطوف على (الذين أنعمت عليهم) وللفرق بين الطريقتين لتجتنب كل واحدة منهما ، فان طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم [1] ، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى — واستشهد بالآيتين اللتين استشهد بهما البغوى ، ثم ذكر

(١) يعنى علم الدين وأساسه التوحيد

الحديث ورواياته وهو عند أحمد والترمذى ، وكذا ابن حبان من طريق سماك ابن حرب عن عدى بن حاتم قال الترمذى: حسن غريب لانعرفه إلامن حديثه . وسماك ضعفه جماعة ووثقه آخرون ، واتفقوا على أنه تغير فى آخر عمره بل خرف ، فما رواه فى هذه الحال فلا جدال فى رده بالاتفاق ، وأخرجه ابن مردويه عن أبى ذر أيضا بسند قال الحافظ فى الفتح: إنه حسن. وقال ابن أبى حاتم: إنه لايعرف فى تفسيرهما بما ذكر خلافا يعنى فى المأثور . ومع هذا نقول إن ما ذكره المحققون من الوجوه الأخرى لا يعد مخالفة للمأثور الذى هو من قبيل تفسير العام ببعض أفراده من قبيل التمثيل لا التخصيص ، ولا الحصر بالأولى

﴿ التأمين بعد الفاتحة ﴾

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال ابن شهاب : كان رسول الله ﷺ يقول « آمين » رواه الجماعة إلا أن الترمذى لم يذكر قول ابن شهاب . وفى رواية « إذا قال الامام (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا: آمين ، فان الملائكة تقول آمين ، وإن الامام يقول آمين ،فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه احمد والنسائى . وعن أبى هريرة قال « كان رسول الله ﷺ إذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: آمين . حتى يسمع من يليه من الصف الأول » رواه أبو داود وابن ماجه وقال « حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد » وعن وائل بن حجر قال « سمعت رسول الله ﷺ قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقال : آمين. يمد بها صوته » رواه احمد وأبو داود والترمذى اهـ منتقى الأخبار

وهذه الأحاديث كلها صحيحة وأخرجها غير من ذكر ، وزاد أبو داود فى الأخير منها «ورفع بها صوته» قال الحافظ ابن حجر: وسنده صحيح . وخطأ ابن القطان فى إعلانه إياه بجهالة حجر بن عنبس وقال إنه ثقة معروف قيل: إن له صحبة وهنالك أحاديث أخرى فى المسألة تبلغ مع هذه سبعة عشر حديثا. وهذه أصحها

قال الشوكانى فى نيل الأوطار عند شرح حديث أبى هريرة الأول: والحديث يدل على مشروعية التأمين. قال الحافظ : وهذا الأمر عند الجمهور للندب ، وحكى ابن بزيزة عن بعض أهل العلم وجوبه عملا بظاهر الأمر ، وأوجبته الظاهرية على كل من يصلى ، والظاهر من الحديث: وجوبه على المأموم فقط ، لكن لا مطلقا بل مقيداً بأن يؤمن الإمام ، وأما الإمام والمنفرد فمندوب فقط

(قال) وحكى المهدى فى البحر عن العترة جميعاً أن التأمين بدعة ـ وقد عرفت ثبوته عن على رضى الله عنه من فعله وروايته عن النبى ﷺ فى كتب أهل البيت وغيرهم ـ على أنه قد حكى السيد العلامة الامام محمد بن ابراهيم الوزير عن الامام المهدى محمد بن المطهر وهو أحد أئمتهم المشاهير أنه قال فى كتابه (الرياض الندية) إن رواة التأمين جم غفير — قال ـ وهو مذهب زيد بن على وأحمد ابن عيسى اه وقد استدل صاحب البحر على أن التأمين بدعة بحديث معاوية ابن الحكم السلمى « إن هذه صلاتنا لا يصلح فيها شىء من كلام الناس » ولا شك أن أحاديث التأمين خاصة وهذا عام ، وإن كانت أحاديثه الواردة عن جمع من الصحابة لا يقوى بعضها على تخصيص حديث واحد من الصحابة — مع أنها مندرجة تحت تلك العمومات القاضية بمشروعية مطلق الدعاء فى الصلاة لأن التأمين دعاء ، فليس فى الصلاة تشهد ، وقد أثبتته العترة ، فما هو جوابهم فى إثباته فهو الجواب فى إثبات ذلك . على أن المراد بكلام الناس فى الحديث هو تكليمهم لأنه اسم مصدر كلم لا تكلم و يدل على ذلك السبب المذكور فى الحديث اه

والمراد بقوله السبب المذكور فى الحديث هو أن معاوية بن الحكم السلمى شمت عاطسا فى الصلاة مع النبى ﷺ فرماه القوم بأبصارهم فقال : واثكل أماه مالكم تنظرون إلى ؟ الخ . وجملة القول : أن التأمين فى الصلاة مشروع بنص الأحاديث الصحيحة الصريحة. فلا وجه لمنعه بعموم أحاديث أخرى لا تنافيها ، ولو عارضتها لوجب ترجيحها عليها

واختلف فى موضعه بالنسبة إلى المأموم هل هو بعد قول الامام (ولا الضالين) أم عند قوله « آمين » وهو مبني على أن بين الحديثين فى ذلك تعارضاً وهو غفلة

عن كون الامام إنما يؤمن بعد قوله (ولا الضالين) كما صرح به في رواية أحمد والنسائي لحديث أبي هريرة فمعنى الحديثين متفق ، وقوله ﷺ « إذا أمن الامام فأمنوا » مبني على أن من شأن الامام أن يؤمن عقب إتمام الفاتحة اتباعاً للسنة فلا مفهوم للشرط فيه .

﴿ فائدة في مخرجي الضاد والظاء وحكم تحريف الأول ﴾

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره . والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما . وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة ، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك ، والله أعلم . وأما حديث : أنا أفصح من نطق بالضاد ـ فلا أصل له اهـ

وأقول : إن أكثر أهل الامصار العربية قد أرادوا الفرار من جعل الضاد ظاء كما يفعل الترك وغيرهم من الأعاجم فجعلوها أقرب إلى الظاء منها إلى الضاد حتى القراء المجودون منهم . إلا أهل العراق وأهل تونس فهم على ما نعلم أفصح أهل الامصار نطقا بالضاد ، وإننا نجد أعراب الشام وما حولها ينطقون بالضاد فيحسبها السامع ظاء لشدة قربها منها وشبهها بها . وهذا هو المحفوظ عن فصحاء العرب الأولين حتى اشتبه نقلة العربية عنهم في مفردات كثيرة قالوا إنها سمعت بالحرفين وجمعها بعضهم في مصنف مستقل . والأشبه أنه قد اشتبه عليهم أداؤها منهم فلم يفرقوا ، والفرق ظاهر ولكنه غير بعيد

وقد قرىء قوله تعالى في سورة التكوير (وما هو على الغيب بضنين) بكل من الضاد والظاء ، والضنين البخيل . والظنين المتهم ، وفائدتهما نفي كل من البخل والتهمة . والمعنى ما هو ببخيل في تبليغه فيكتم ، ولا بمتهم فيكذب . قال في الكشاف : وهو في مصحف عبدالله بالظاء ، وفي مصحف أبي بالضاد ، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما . واتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب ، ومعرفة مخرجيهما مما لا بد

منه للقارىء ، فإن أكثر العجم لايفرقون بين الحرفين ، و إن فرقوا ففرقا غير صواب و بينهما بون بعيد ، فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان ومايليها من الاضراس من يمين اللسان و يساره ، وكان عمر بن الخطاب (رض) أضبط يعمل بكلتا يديه ، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه ، وهى أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين . وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا . وهى أحد الأحرف الذولقية ، أخت الذال والثاء . ولو استوى الحرفان ، لما ثبتت فى هذه الكلمة قراءتان اثنتان ، واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة . ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب اهـ

وأقول : صدق أبو قاسم الزمخشرى فى تحقيقه هذا كله إلا قوله : إن البون بين الحرفين بعيد ، فالفرق ثابت ولكنه قريب ، وهو يحصل باخراج طرف اللسان بالظاء من بين الثنايا كأختيه الثاء والذال ، ولا شركة بينه و بينهما إلا فى هذا

﴿ التوسع فى الاستنباط من معنى الفاتحة ﴾

إن ما أوردناه أولا فى تفسير الفاتحة من تلخيص لما فهمناه من دروس شيخنا ومما قرأناه فى الكتب ، ثم مازدناه عليه فى أصله وفى هذه الفوائد الزوائد فالغرض منه التفقه فى معانى القرآن والاهتداء به . وقد اقتصدنا فيه فاقتصرنا على مالايشغل القارىء عن المقصد . وقد أطال الفخر الرازى فى استطرادات عديدة ، ومسائل مستنبطة من لوازم المعانى قريبة أو بعيدة ، ولكنها تشغل مريد الاهتداء بالقرآن ، وأطال ابن القيم فى أول كتابه (مدارج السالكين) القول فى استنباط المسائل منها من طريق الدلالات الثلاث : المطابقة والتضمن والالتزام . وأخذ الثالثة باللزوم البين بالمعنى الأعم وبالمعنى الأخص و باللزوم غير البين أيضا ، بل سمى كتابه : مدارج السالكين ، بين منازل (إياك نعبد و إياك نستعين) وأجمل ذلك بقوله فى خطبة الكتاب : إنه ينبه « على بعض ماتضمنته هذه السورة من هذه المطالب ، وماتضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع و الضلال ، وما تضمنته من منازل السائرين ، ومقامات العارفين ، والفرق بين وسائلها . وغاياتها ، ومواهبها

وكسبيانها ، و بيان أنه لايقوم غير هذه السورة مقامها ولا يسد مسدّها ، ولذلك لم ينزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى القرآن مثلها » اهـ

ومما ذكره فى تفصيل ذلك : فصول فى الرد على أهل الوحدة والمجوس والقدرية والجهمية والجبرية ومنكرى النبوات والقائلين بقدم العالم

والفرق بين هـذه المستنبطات ومستنبطات الرازى أن أكثر تلك فى المصطلحات العربية والعقلية والكلامية والفقهية ، وأكثر هذه فى المقاصد الروحية التعبدية لتلك المصطلحات والعلوم ، فهى تزيد قارئها ديناً و إيمانا وتقوى ، ولكن لا يصح أن يسمى شىء منهما تفسيراً للفاتحة ، ولو كنا نعده تفسيراً لاقتبسناه أو لخصناه فى هذه الفوائد

وللصوفية منازع فيها أبعد عن اللغة والنقل والعقل من كل ذلك ، جرأت مثل الدجال ميرزا غلام أحمد القادياني الذى ادعى النبوة والوحى فى هذا العصر وزعم أنه المسيح الذى ينتظره أهل الملل فى آخر الزمان ، جرأته على ادعاء دلالة البسملة على دعواه الباطلة !! (وقد فقدنا شبهة أمثال هؤلاء فى تفسير قوله تعالى (٦ : ٣٨ مافرطنا فى الكتاب من شىء)

وقد ذهب بعض المعاصرين مذهباً أبعد من هذا وذاك فى تفسير الفاتحة وغيرها من القرآن ، فهو يرى أن تفسير لفظ العالمين (مثلا) يقتضى بيان كل ماوصل اليه علم البشر من مدلول هذا اللفظ ، وأن تفسير لفظى (الرحمن والرحيم) يقتضى بيان كل مايعرف من نعم الله و إحسانه بخلقه و إلى خلقه من كل وجه ، فاتباع هذا المذهب فى تفسير الفاتحة أو آية أو كلمة منها لايكمل إلا بكتابة ألوف من المجلدات يدون فيها كل ما وصل إليه علم جميع علماء الأرض فى أعيان العالم وصفاتها وأحوالها من أدنى الحشرات إلى أرقى البشر من حكماء الصديقين ، والانبياء المرسلين ، و إن عد مثل هذا من التفسير إضلال عن القرآن ، و إنما يحسن فى التفسير تذكير المؤمن بأن لايغفل عن ذكر الله والتفكر فى آياته ورحمته ونعمه فى كل نوع من مخلوقاته ، عند النظر فيها ، والتفكر فى آيات الله الدالة عليها

ونزع بعض الدجالين والمحرفين منزعا آخر سبقهم إليه اليهود وهو استنباط المعاني من أعداد حروف الهجاء بحساب الجمّل ، قال بعضهم : إن القرآن يدل على

أن قيام الساعة سيكون فى سنه ١٤٠٧ للهجرة وهو عدد حروف « بغتة » من قوله تعالى « لا تأتيكم إلا بغتة » وهؤلاء فى الحروف المقطعة فى أوائل السور وفى أعدادها ضلالات لا نضيع الوقت بكتابتها ، فلدلالة الألفاظ على المعانى طرق فى اللغة لا تخرج عنها ، وليس هذا منها .

﴿ ما ينبغى تدبره واستحضاره من معانى الفاتحة وغيرها فى الصلاة ﴾

إذا قمت أيها المسلم إلى الصلاة فوجه كل قلبك فيها إلى استحضار كل ما يتحرك به لسانك من ذكر وتلاوة .

فاذا قلت « الله أكبر » فحسبك أن تذكر فى قلبك أن الله تعالى أعظم من كل عظيم ، وأكبر من كل شىء . فلا يصح أن يشغلك عن الصلاة له أو فيها شىء دونه ، وكل شىء دونه .

و إذا قرأت ماورد فى ذكر الافتتاح فلا تشغل نفسك بغير معناه وهو ظاهر و إذا استعذت بالله تعالى قبل القراءة عملا بعموم قوله تعالى (١٦ : ٩٨ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) فتصور من معنى صيغة الاستعاذة أنك تلجأ إلى الله تعالى وتعتصم به من وسوسة الشيطان الشاغلة عن الصلاة وما يجب فيها من التدبر لكتابه والخشوع والإخلاص له تعالى .

و إذا قرأت البسملة فاستحضر من معناها : إننى أصلى (باسم الله) ولله الذى شرع الصلاة وأقدرنى عليها (الرحمن الرحيم) ذى الرحمة العامة التى وسعت كل شىء والخاصة بمن شاء من عباده المخلصين .

و إذا قلت (الحمد لله رب العالمين) فاستحضر من معناها أن كل ثناء جميل بالحق فهو لله تعالى استحقاقا وفعلا ، من حيث إنه الرب خالق العالمين ومدبر جميع أمورهم . . . (الرحمن) فى نفسه (الرحيم) بخلقه (مالك يوم الدين) ذى الملك والتصرف دون غيره يوم محاسبة الخلق ومجازاتهم بأعمالهم فلا يرجى غيره . و إذا قلت (إياك نعبد) الخ فتذكر أنك تخاطب هذا الرب العظيم كفاحا بما يجب أن

تكون صادقا فيه ، ومعناه : نعبدك وحدك دون سواك بدعائك والتوجه إليك (و إياك نستعين) نطلب معونتك وحدك على عبادتك وعلى جميع شؤوننا ، بالعمل بما أعطيتنا من الأسباب ، و بالتوكل عليك وحدك عند العجز عنها (اهدنا الصراط المستقيم) دلنا وأوصلنا بتوفيقك ومعونتك إلى طريق الحق فى العلم والعمل ، الذى لا عوج فيه ولا زلل (صراط الذين أنعمت عليهم) بالإيمان الصحيح والعمل الصالح وثمرتهما وهى سعادة الدارين ، وتذكر إجمالا أولئك المنعم عليهم « من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين » وأن حظك من هذه الهداية لصراطهم إنما يكون بالتأسى والاقتداء بهم فى الدنيا ، ومرافقتهم فى الآخرة « وحسن أولئك رفيقا » صراط الذين أنعمت عليهم فضلا و إحسانا منك (غير المغضوب عليهم) بإيثارهم الباطل على الحق ، وترجيحهم الشر على الخير (ولا الضالين) عن طريق الحق والخير بجهلهم « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

وأنصح لك أيها التالى للقرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة أن تقرأه على مكث وتمهل ، بخشوع وتدبر ، وأن تقف على رءوس الآيات ، وتعطى القراءة حقها من التجويد والنغمات ، مع اجتناب التكلف والتطريب ، واتقاء الاشتغال بالألفاظ عن المعانى ، فان قراءة آية واحدة مع التدبر والخشوع ، خير لك من قراءة ختمة مع الغفلة . ومن المجربات : أن تغميض العينين فى الصلاة يثير الخواطر ، ولذلك كان مكروها ـ وأن رفع الصوت المعتدل فى الصلاة الجهرية ولاسيما صلاة الليل يطرد الغفلة ، و يوقظ راقد الخشية ، و إعطاء كل أسلوب حقه من الأداء والصوت يعين على الفهم ، و يستفيض ماغاض بطول الغفلة من شآبيب الدمع

(وراجع بحث تأثير التلاوة فى أول تفسير

سورة الأعراف فى الكلام

على الحروف المفردة)

سورة البقرة ٢

(جميعها مدنية بالإجماع ، ومنها آية نزلت على ماقيل فى حجة الوداع ، وروى أنها آخر آى القرآن نزولا وهى (٢٨١ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) الخ ومعظمها نزل فى أول الهجرة . وهى أطول جميع سور القرآن ، فآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات أو ست وعليه عد المصاحف المشهورة الآن . ولا حاجة إلى بيان التناسب بينها و بين الفاتحة ، و إن كان التناسب ظاهراً ، فإنها لم توضع بعدها لأجله ، و إنما وضعت فى أول القرآن بعد فاتحته (التى كانت فاتحته بما لها من الخصائص التى بيناها فى تفسيرها) لأنها أطول سورة وتليها بقية السبع الطوال بتقديم المدنى منها على المكى ، لا الطولى فالطولى ، فإن الأنعام أطول من المائدة وهى بعدها ، والاعراف أطول من الأنعام وقد أخرت عنها ، وقدمت الأنفال على التو بة وهى أقصر منها ، وكلتاهما مدنيتان ، و إنما روعى الطول فى ترتيب سور القرآن فى الجملة لا فى كل الأفراد. وروعى التناسب فى ترتيب ذلك ، و يراه القارىء فى محله من كل منها . ثم مزج المدنى بالمكى فى سائر السور ، لأن اختلاف أسلو بيهما ومسائلهما أدنى إلى تنشيط القارىء ، وأنأى به عن الملل من التلاوة . وهذا من خصائص القرآن .

وقد رأينا أن نستدرك قبل الشروع فى تفسيرها مافاتنا فى آخره من تلخيص ما اشتملت عليه من الدعوة إلى الإسلام ، وما فيها من العقائد والأحكام ، وقواعد الدين وأصول التشريع ، فنقول :

﴿خلاصة سورة البقرة وما فيها من دعوة الاسلام وأحكامه وقواعده﴾

دعوة الإسلام العامة :

بدأ الله عز وجل سورة البقرة بدعوة القرآن ، وكونه حقاً لامجال فيه لشك ولا ارتياب ، وجعل الناس تجاه هدايته ثلاثة أقسام :

(١) المؤمنون وهم قسمان : الذين يؤمنون بالغيب بمجرد سلامة الفطرة و يقيمون ركنى الدين : البدنى الروحى ، والمالى الاجتماعى ، والذين يؤمنون به بتأثير إيمانهم بما أنزل من

قبله من كتب الرسل، إذ يرونه أكمل منها هداية وأصح رواية ، وأقوى دلالة . ثم فصل هذه الأصول للايمان فى آية (١٧٦ ليس البر الخ) وآيتى (٢٨٤ و ٢٨٥ لله مافى السموات وما فى الأرض) الخ

(٢) الكافرون الراسخون فى الكفر وطاعة الهوى ، الذين فقدوا الاستعداد للايمان والهدى .

(٣) المنافقون الذين يظهرون غير مايخفون ، ويقولون ما لا يفعلون (فهذه آياتها الأولى إلى ٢٠ آية)

وقفى على هذا بدعوة الناس جميعا إلى عبادة ربهم وحده ، وعدم اتخاذ الأنداد له ، الذين يُحبّون من جنس حبه ، ويذكرون معه فى مقامات ذكره ، ويشركون معه فى مخ العبادة ـ الدعاء ـ أو يدعون من دونه (أنظر الآيتين ٢١ و ٢٢ وآيات الإسلام فى قصة ابراهيم واسماعيل ووصية ابراهيم ويعقوب لأبنائهم من ١٢٤ — ١٣٨ كما يأتى ، والآيات التى سنشير إليها فى خطاب أمة الإجابة من ١٦٣ — ١٧١

ثم ثنى دعوة التوحيد بدعوة الوحى والرسالة واحتج على حقية هذه الدعوة بهذا الكتاب المنزل على عبده محمد ﷺ بتحدى الناس كافة بالاتيان بسورة من مثله ، مع التصريح القطعى بعجزهم أجمعين ، ورتب على هذا إنذار الكافرين بالنار ، وتبشير المؤمنين بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وقفى على هذا ببيان بعض الأدلة العقلية على الإيمان ، وبخلاصة النشأة الآدمية وعداوة الشيطان للانسان . وتم ذلك بالآية ٣٩

ثم خص بنى اسرائيل بالدعوة ، تاليا عليهم مالم يكن يعلمه محمد لولا وحيه تعالى له ، فذكرهم بنعمه ، وأمرهم أن يؤمنوا بما أنزله على خاتم رسله ، ونهاهم أن يكون المعاصرون له منهم أول كافر به ، وحاجهم فى الدين بتذكيرهم بأيام الله ، وبأهم الوقائع التى كانت لسلفهم مع كليمه ، من كفر وإيمان ، وطاعة وعصيان ، ثم بالتذكير لهم وللعرب بهدى جدهم ابراهيم الخليل ، وبنائه لبيت الله الحرام مع ولده إسماعيل ، ودعائهما إياه تعالى أن يبعث فى الأميين رسولا منهم ،

و بأن علماءهم يعرفون أن محمداً هوالرسول الذى دعا به ابراهيم و بشر به موسى كما يعرفون أبناءهم ، وبأن فريقا منهم يكتمون الحق وهم يعلمون ، أى والفريق الآخر يؤمنون به ، و يعترفون بوعد الله لابراهيم ثم لموسى بقيام نبى من أبناء إخوتهم مثله

بدىء هذا السياق بالآية ٤٠ من السورة (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) الخ وانتهى بالآية ١٤٢ منها ، وتخلله بعض الآيات الموجهة للمؤمنين للاعتبار بما فيه من شؤون أهل الكتاب السابقين والحاضرين من اليهود بالتفصيل ومن النصارى بالاجمال ، إذ لم يكن أحد منهم مجاوراً ولا مخالطا للمسلمين فى تلك الحال ، فإن نزول البقرة كان فى أول عهد الهجرة . وما تقدم يناهز نصف السورة ، وهو شطرها الخاص بأمة الدعوة ، والشطر الثانى قد وجه لأمة الإجابة

خطاب أمة الاجابة بموضوع الدعوة العام :

كان الانتقال من خطاب أهل الكتاب من أمة الدعوة إلى خطاب أهل القرآن من أمة الإجابة بذكر ماهو مشترك بين قوم موسى وقوم محمد من نسب ابراهيم والاتفاق على فضله وهدايته ، وكان العرب فى الجاهلية يعترفون بذلك إجمالا كالمسلمين ، ثم بذكر أول مسألة عملية اختلف فيها القومان وهى مسألة القبلة ، فقد كان النبى ﷺ يصلى بمكة إلى الكعبة المشرفة من جهة الشمال حيث تكون بينه و بين بيت المقدس فى بلاد الشام ، وهو قبلة بنى إسرائيل ؛ فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بين استقبال الكعبة التى هى فى جنوبها ، و بيت المقدس الذى هو فى شمالها ، فأعطى الله خاتم رسله سؤله بأمره بالتوجه إلى الكعبة وحدها ومسألة القبلة من شعائر الملة وخصائصها الدينية الاجتماعية ، حتى إن النصارى وهم فى الأصل مع رسولهم (عيسى المسيح عليه السلام) من أتباع شريعة التوراة قد ميزوا أنفسهم دون اليهود بابتداع قبلة خاصة بهم غير قبلة عيسى رسولهم الذى اتخذوه إلهاً لهم وهى صخرة بيت المقدس .

بعد تأكيد أمر القبلة ، وأنه من إتمام النعمة على هذه الأمة بين وظائف الرسول ﷺ وهى كما فى دعاء ابراهيم تبليغ القرآن وتربية الأمة ، وتعليمها الكتابة

والحكمة ، ومالم تكن تعلم من القضاء والسياسة وأمور الدولة . فقال تعالى (١٥١ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوعليكم آياتنا ويزكيكم و يعلمكم الكتاب والحكمة و يعلمكم مالم تكونوا تعلمون) ثم أمرهم بذكره وشكره تعالى ، و بالإستعانة بالصبر والصلاة على النهوض بمهمات الأمور ، وذكر التطواف والسعى بين الصفا والمروة لمناسبة اقتضاها المقام ، ولعن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى بعد تبيينه للناس فى الكتاب ، واستثنى من تاب وأصلح و بين وأناب ، وسجل اللعنة على من مات على كفره ، وكونهم خالدين فى النار لا يخفف عنهم العذاب .

ثم ذكر الأساس الأعظم للدين ، وهو توحيد الآلهية ، بتخصيص الخالق سبحانه بالعبودية ، وهو قوله تعالى (١٦٣ و إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وقرن ذلك بالتذكير بآياته الكثيرة الدالة عليه فى السموات والأرض وما بينهما ثم ذكر ما يقابل هذا التوحيد مقابلة التضاد ، وهو الشرك باتخاذ الأنداد ، والاعتماد فيه على تقليد الآباء والأجداد ، وشنع على المقلدين والذين يدعون غير الله تعالى من المشركين ، فجردهم من حلية العقل ، وشبههم بالصم البكم العمى . وانتهى هذا بالآية ١٧١

ثم أوجب على المؤمنين الأكل من أجناس جميع الطيبات وأمرهم بالشكر له عليها ، وحصر محرمات الطعام عليهم فى الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، واستثنى من اضطر إليها ، وانما ذكر هذا فى سياق كليات الدين المجملة لابطال ما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من التحليل والتحريم فيها الذى هو حق الله تعالى بتحكيم الأهواء ، ووقى على هذا كله بوعيد الذين يكتمون ما أنزل الله ، ايذانا بوجوب الدعوة و بيان الحق على كل من آمن بالله ، وتحذيراً مما وقع بين أهل الكتاب من الاختلاف والشقاق والتحريف والنسيان لحظ عظيم مما أنزله الله

وختم هذا السياق العام ببيان أصول البر ومجامعه فى الآية المعجزة الجامعة لكليات العقائد والآداب والأعمال : (١٧٦ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب — الخ)

وقفى عليه بسياق طويل فى الأحكام الشرعية الفرعية بدىء بأحكام القصاص فى القتلى من آية (١٧٧) وانتهى بأحكام القتال وما تقضيه من أمور الاجتماع

وقواعده فى آخر الجزء الثانى من تجزئة القرآن الثلاثينية وسنذكر أنواعها

ثم عاد الكلام على بدئه فى العقائد العامة من الرسالة والتوحيد وحججه والبعث، وفى الأحكام والآداب العامة التى هى سياج الدين ونظام الدنيا، ورأسها الانفاق فى سبيل الله، وهى طريق الحق والخير وسعادة الدارين، والاخلاص فيه وفى سائر الأعمال . ثم عاد إلى الاحكام الفرعية العملية إلى ما قبل ختم السورة كلها بالدعاء المعروف . وهاك بيان مافى السورة من أنواع أحكام الفروع العملية :

خطاب أمة الاجابة بالفروع العملية

كانت الاحكام الشرعية العملية منها تنزل على النبى (ص) عند استعداد الأمة لها بالنسبة إلى العبادات، وعند الحاجة اليها فى العمل بالنسبة الى المعاملات، والمذكور منها فى سورة البقرة أنواع، نلخصها فيما يلى :

(١) إقامة الصلاة وايتاء الزكاة بمدح أهلهما فى الآية ٣ والأمر بهما فى الآية ١١٠

(٢) تحريم السحر، وكونه فتنة وكفراً أو مستلزما للكفر .

(٣) أحكام القصاص فى القتلى وهو المساواة فيها وحكمته (آيتا ١٧٨ و ١٧٩)

(٤) الوصية للوالدين والأقربين (آيتا ١٨١ و ١٨٢)

(٥) أحكام الصيام مفصلة وقد نزلت فى السنة الثانية للهجرة (آيات ١٨٣-١٨٧)

(٦) تحريم أكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها الى الحكام للاستعانة بهم على أكل فريق منها بالاثم كما هو الفاشى فى هذه الازمنة (آية ١٨٨)

(٧) جعل الأشهر الهلالية هى المعتمد عليها فى المواقيت الدينية للناس، ومنها الصيام والحج وعدة النساء ومدة الايلاء (آية ١٨٩)

(٨) أحكام القتال وكونه ضرورة مقيدة بقتال من يقاتلنا و يهدد حرية ديننا دون غيرهم و بتحريم الاعتداء فيه، وغايته منع الفتنة فى الدين وهو الاكراه فيه والتعذيب والايذاء للصد عنه، والمراد مايسمى فى عرف هذا العصر بحرية الاعتقاد والوجدان، ومنه أحكام القتال فى الشهر الحرام (آيات ١٩٠ — ١٩٥ ؛ ٢١٦ — ٢١٨ . ثم ٢٢٤ — ٢٥٢)

(٩) الأمر بانفاق المال فى سبيل الله لأنه وسيلة للوقاية من التهلكة ، وهذا يتناول الانفاق للاستعداد للقتال الذى يرجى أن يكون سبباً للسلم ومنع القتال ، والسلامة من الهلاك ، ويتناول غير ذلك كمنع العدوان العام والخاص ، والنظم الضارة بالاجتماع (آية ١٩٥) ثم الامر بالانفاق لأجل السلامة من هلاك الآخرة (فى الآية ٢٥٤) ثم الترغيب فى الانفاق والوعد بمضاعفة الأجر عليه بسبعمائة ضعف وأكثر و بيان شرط قبوله وآدابه وضرب الامثال للاخلاص وللرياء فيه فى سياق طويل (من آية ١٩٦ ـ ٢٠٣)

(١٠) أحكام الحج والعمرة (من آية ١٩٦ ـ ٢٠٣)

(١١) النفقات والمستحقون لها من الناس (٢١٥ و ٢١٩ و ٢٧٣)

(١٢) تحريم الخمر والميسر تحريماً ظنياً اجتهادياً راجحاً غير قطعى تمهيداً للتحريم الصريح بالنص القطعى (٢١٩)

(١٣) معاملة اليتامى ومخالطتهم فى المعيشة (٢٢٠)

(١٤) تحريم نكاح المؤمنين المشركات ، وانكاح المشركين المؤمنات (٢٢١)

(١٥) تحريم إتيان النساء فى المحيض وفى غير مكان الحرث ووجوب إتيانهن من حيث أمر الله بأى صفة كانت (٢٢٢ و ٢٢٣)

(١٦) بعض أحكام الأيمان بالله ، كجعلها مانعة من البر والتقوى والاصلاح ، وعدم المؤاخذة بيمين اللغو (٢٢٤ و ٢٢٥)

(١٧) حكم الايلاء من النساء (٢٢٦ و ٢٢٧)

(١٨) أحكام الزوجية من الطلاق والرضاعة والعدة وخطبة المعتدة ونفقتها ومتعة المطلقة (٢٢٨ ـ ٢٣٧ و ٢٤١)

(١٩) حظر الربا والامر بترك مابقى منه والاكتفاء برءوس الاموال منه وايجاب إنظار المعسر ، أى امهاله إلى ميسرة (٢٧٥ ـ ٢٨٠)

(٢٠) أحكام الدين من كتابة و إشهاد وشهادة وحكم النساء والرجل فيها والرهان ووجوب أداء الأمانة وتحريم كتمان الشهادة (٢٨٢ و ٢٨٣)

(٢١) خاتمة الأحكام العملية : الدعاء العظيم فى خاتمة السورة

﴿ الأصول والقواعد الشرعية العامة فى سورة البقرة ﴾

(القاعدة الأولى) إن اتباع هدى الله المنزل على رسله وهو الدين موجب للسعادة بأن أصحابه لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهـذا وعد يشمل الدنيا والآخرة لاطلاقه ، ولـكنه فى الدنيا إضافى مطرد فى الأمم و إضافى مقيد غير مطرد فى الافراد ، وفى الآخرة حقيقى مطرد للجميع ، وموجب لشقاء من أعرض عنه بعد بلوغ دعوته على وجهها . على نسبة مقابله فى الدارين والشاهد عليه قوله تعالى لآدم ومن معه (قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم منى هدى ـ الآية ٣٨ والتى بعدها ٣٩ ـ وراجع معناها فى سورة طه (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) الآية (٢٠ : ١٢٣ ومابعدها إلى ١٢٨ فهى موضحة لما أردنا هنا

(القاعدة الثانية) قوله تعالى (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم)الآية ٤٠ وهى مقيدة لسعادة الدين بأنها إنما تحصل باقامته . فالله يقول (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) فى باب الاطلاق ، ويقول فى باب التقييد (إن تنصروا الله ينصركم) وهذا شاهد على التقييد الذى ذكرناه فى القاعدة الأولى ، ومثله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا) راجع الآيات ٨٤ ـ ٨٦

(القاعدة الثالثة) قوله تعالى (٤٤ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟أفلا تعقلون) وهى صريحة فى أن هذا مخالف للمنقول الشرعى وهو الكتاب ، وللمعقول الفطرى ، إذ لايخفى على عاقل قبح عمل من يأمر غيره بالخير وهو يتركه ، أو ينهاه عن فعل مايضره من الشر وهو يفعله ، وأنه يقيم بذلك الحجة على نفسه ، ولايكون أهلا لأن يمتثل أمره ونهيه .

(القاعدة الرابعة) قوله تعالى فى مقام الإنكار على بنى إسرائيل (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟) صريح فى وجوب ترجيح الأعلى على الأدنى و إيثار الخير على الشر ، والارشاد إلى طلب ماهو خير وأفضل مما يقابله وفى طلب المعالى والكمال فى أمور الدنيا والآخرة . وفى معناه قوله تعالى (١٣٠ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه)

(القاعدة الخامسة) قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا ـ الآية ٦٢ صريح فى أن أصول دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله هذه الثلاثة : الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من الجزاء ، والعمل الصالح — ومنه ما ذكر فى آية ٨٣ من ميثاق بنى إسرائيل ، فثمرة الإيمان منوطة بالثلاثة .

(القاعدة السادسة) أن الجزاء على الإيمان والعمل معا ، لأن الدين إيمان وعمل . ومن الغرور أن يظن المنتمى إلى دين نبى من الأنبياء ، أنه ينجو من الخلود فى النار بمجرد الانتماء ، والشاهد عليه ماحكاه الله لناعن بنى إسرائيل من غرورهم بدينهم ومارد به عليهم حتى لانتبع سننهم فيه، وهو (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ـ آية ٨٠ ـ ٨٢ وماحكاه عن اليهود والنصارى جميعاً من قولهم (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم) الخ الآيتين ١١١ و ١١٢ ولكننا قد اتبعنا سننهم شبراً بشبر وذراعا بذراع مصداقا لما ورد فى الحديث الصحيح . وإنما نمتاز عليهم بأن المتبعين لهم بعض الأمة لاكلها ، و بحفظ نص كتابنا كله وضبط سنة نبينا فى بيانه ، و بأن حجة أهل العلم والهدى منا قائمة إلى يوم القيامة .

(القاعدة السابعة) أن شرط الايمان : الاذعان النفسى لكل ماجاء به الرسول الذى يلزمه العمل عند انتفاء المانع ، ومأخذه قوله تعالى (٨٣ وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) إلى آخر آية ٨٦ وقوله (١٠٠ أوكلما عاهدوا عهدا) الآية ، فمن ترك بعض العمل بجهالة فهو فاسق إلى أن يتوب . ومن تركه لعدم الإذعان له كان كافراً به ، والكفر بالبعض كالكفر بالكل والشاهد عليه قوله تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) الآية . وليس هذا من الكفر العملى الذى لايخرج به صاحبه من الملة الذى استشهدوا له بحديث «لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» الخ كما قال بعض العلماء لأن هذا النوع هو من عمل الافراد الذى تغلبهم عليه داعية طبيعية كالشهوة والغضب ـ وما نحن فيه عبارة عن عدم العمل بالشرع الآلهى لعدم الاذعان له ، كاستباحة قتل فريق من الأمة ونفى فريق آخر من وطنه بمحض اتباع الهوى والطمع فى عرض الدنيا، لا بجهالة عارضة يُغلب فيها الفرد على أمره ثم يثوب اليه رشده فيتوب إلى ربه

(القاعدة الثامنة) النسخ أو الانساء للآيات الإلهية التي يؤيد الله بها رسله كما يقتضيه سياق قوله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها) اقرأها وما بعدها (١٠٦ و ١٠٧) أو للآيات التشريعية كما فهم الجمهور كلاهما من رحمة الله بجعل البدل خيراً من الأصل ، أو مثله على الأقل ، وتكون الخيرية فى المثل التنويع وكثرة الآيات

(القاعدة التاسعة) قوله تعالى (١٢٠ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) آية للنبي كاشفة عن حال أهل الملتين فى عصره ، ولاتزال مطردة فى أمته من بعده ، وقد اغتر زعماء بعض الشعوب الإسلامية فحاولوا إرضاء بعض الدول بمادون اتباع ملتهم من الكفر فلم يرضوا عنهم ، ولو اتبعو ملتهم لاشترطوا أن يتبعوهم فى فهمها وصور العمل بها ، حتى لايبقى لهم أدنى استقلال فى دينهم ولا فى أنفسهم .

(القاعدة العاشرة) أن الولاية العامة الشرعية حق أهل الإيمان والعدل ، وأن الله تعالى لن يعهد بإمامة الناس وتولى أمورهم للظالمين ، فكل حاكم ظالم فهو ناقض لعهد الله تعالى ـ راجع قول الله تعالى فى إبراهيم عليه السلام بعد ابتلائه مما ظهر به استحقاقه للامامة (١٢٣ قال إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتى . قال لاينال عهدى الظالمين)

(القاعدة الحادية عشرة) إن الإيمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل كما أنزله يقتضى الوحدة والاتفاق ، وترك الاهتداء به يورث الاختلاف والشقاق ، وشواهده من السورة قوله تعالى (١٣٧ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقداهتدوا وإن تولوا فانما هم فى شقاق) وقوله (١٧٦ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق و إن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد) وقوله (٢١٣ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين الخ .

(القاعدة الثانية عشرة) الاستعانة على النهوض بمهمات الأمور بالصبر والصلاة قال تعالى ٤٥ واستعينوا بالصبر والصلاة و إنها لكبيرة إلا على الخاشعين)

وقوله عز وجل (١٥٣ ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) وهذه قاعدة جليلة راجع تفصيلها فى تفسيرنا للآيتين وأمثالهما

(القاعدة الثالثة عشرة) بطلان التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين والرؤساء ، لأنه جهل وعصبية جاهلية ، والشواهد عليه فى هذه السورة وغيرها عديدة أظهرها هنا ماحكاه تعالى لنا عن تبرؤ المتبوعين من الاتباع يوم القيامة فى آيتى (١٦٦ و ١٦٧) وقوله عز وجل (١٧٠ و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) و إن فى تحريم التقليد وتصريح الكتاب العزيز بأن الله تعالى لا يقبله ولا يعذر صاحبه به فى الآخرة لتأكيداً شديداً لإيجاب العلم الاستقلالى الاستدلالى فى الدين ، وهو لا يقتضى الاجتهاد المطلق فى جميع مسائل التشريع ، أعنى - الاستنباط العام بوضع الأحكام لكل مايحتاج إليه الأفراد والحكام - و إن فى إطلاق مقلدة المصنفين من خلف القرون الوسطى القول بإيجاب تقليد المجتهدين فى أمور الدين ، وتحريم الأخذ بالدليل فيه - لاشتراطهم فيه استعداد كل مستدل مستقل للتشريع لافتياتا على دين الله ، ونسخا لكتاب الله ، وشرعا لم يأذن به الله ، خلاصته تحريم العلم و إيجاب الجهل ، وهـذا منتهى الافساد للفطرة والعقل ، وهو أقطع المدى لأوصال الاسلام ، وأفعل المعاول فى هدم قواعد الإيمان ، وعلة العلل لانتشار البدع التى ذهبت بهداية الدين ، واستبدلت بها الخرافات ودجل الدجالين .

(القاعدة الرابعة عشر) إباحة جميع طيبات المطعم الطبيعية بحسب أفرادها و إيجاب الأكل منها بحسب جنسها ، وامتناع التحريم الدينى العام لما لم يحرم الله تعالى منها ، وذلك قوله تعالى (١٦٨ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) وقوله (١٧٢ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) الآية . وقوله بعدها (١٧٣ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) فحصر المحرمات فى هذه الأربعة . ومثله فى سورة الانعام والنحل من السور المكية ، وفى سورة المائدة المدنية تفصيل فى الميتة بجعل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع منها ، إذا ماتت بذلك ولم تدرك تذكيتها . وقيدت آية الانعام الدم بالمسفوح

(القاعدة الخامسة عشرة) إباحة المحرمات للمضطر اليها بشرط أن يكون غير باغ ولا عاد فيها بتجاوز قدر الضرورة أو الحاجة منها وذلك قوله تعالى فى تتمة الآية الأخيرة

من شواهد القاعدة التي قبل هذه (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) وليست القاعدة مقصورة على محرمات المطاعم بل عامة لكل مايتحقق الاضطرار إليه لأجل الحياة واتقاء الهلاك ولم يعارضه مثله أو ماهو أقوى منه . فالزنا ليس مما يضطر الناس إليه لذلك كما قال العلماء ، ومن اضطر إلى رغيف مضطر مثله فليس له أن يرجح نفسه على صاحب اليد وهو مالك الرغيف

(القاعدة السادسة عشرة) بناء الدين عباداته وغيرها على أساس اليسر ، ورفع الحرج والعسر ـ كما علل سبحانه به رخصة الفطر فى رمضان بقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ومثله تعليل رخصة التيمم برفع الحرج كما فى سورة المائدة. وهذه القاعدة أوسع مما قبلها ، لأن هذه فى ترك الواجب ، إلى بدل عاجل أو آجل ، وتلك فى استباحة المحرم ولو مؤقتا ، فإن ترك الواجبات أهون من فعل المنهيات ، لقوله ﷺ «فاذا أمرتم بشىء فأتوا منه مااستطعتم ، و إذا نهيتكم عن شىء فدعوه » رواه الشيخان وهذا اللفظ لمسلم وهو من أثناء حديث . وسبب هذا أن الترك أهون على غير المضطر من الفعل لأن الأصل عدمه :

(القاعدة السابعة عشرة) عدم تكليف ما لا يطاق وهذه أصل للتين قبلها والنص فيها قوله تعالى فى آخر الآية من السورة (٢٨٦ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ووسع الانسان ما لا حرج فيه عليه ولا عسر ، لأنه ضد الضيق ، ولذلك كانت هذه أوسع مما قبلها وأصلا لها ، فالله لم يكلفنا فى ديننه وشرعه ما لا طاقة لنا به ، ولا يدخل فى وسعنا امتثاله بغير عسر ولا حرج ، فإذا عرض العسر عروضا بأسبابه العادية كالاضطرار لأكل الميتة والدم المسفوح وكالمرض والسفر اللذين يشق فيهما الصوم واستعمال الماء فى الغسل والوضوء أو يضر ترك الأول بنية القضاء ، والثانى إلى التيمم المبيح للصلاة ، ولا تترك الصلاة نفسها لعسر أحد شروطها وعدم عسرها فى نفسها ، وهى لا تعسر من حيث هى توجه إلى الله تعالى ومناجاة له بكتابه وذكره ودعائه ، فإن شق على المصلى بعض أفعالها كالقيام استبدل به القعود فإن شق عليه القعود صلى مضطجعا أو مستلقيا.

(القاعدة الثامنة عشرة) حظر التعرض للهلكة ، فى قوله تعالى (١٩٥ ولا تلقوا

بأيديكم إلى التهلكة) فلا يجوز للمؤمنين ولا سيما جماعتهم أن يتعمدوا إلقاء أنفسهم إلى الهلاك بسعيهم واختيارهم ـ و يلزمه وجوب اجتناب أسباب التهلكة من فعلية وتركية ـ و بتعبير المناطقة من سلبية و إيجابية ـ و يدل عليه ذكر هذا النهى عقب الأمر بالإنفاق فى سبيل الله لما يحتاج إليه الدفاع من النفقات الكثيرة ، ولا سيما فى هذا العصر الذى تعددت فيه آلات القتال ووسائله وعظمت نفقاتها فصارت الأمم العزيزة تنفق الملايين من الجنيهات على وسائل الحرب البرية والبحرية والجوية . وفروع هذه القاعدة كثيرة .

(القاعدة التاسعة عشرة) إتيان البيوت من أبوابها لا من ظهورها ، أى طلب الأشياء بأسبابها دون غيرها ، فلا تجعل العادة عبادة ، ولا العبادة عادة ، ولا تطلب فنون الدنيا من نصوص الدين (أنتم أعلم بأمر دنياكم) كما قال خاتم النبيين ، وأصل هذه القاعدة مايدل عليه قوله تعالى (١٨٩ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واءتوا البيوت من أبوابها) فالزراعة والتجارة والصناعة وفنون الحرب وآلاته وأسلحته أبواب لا يصل إليها إلا من يدخل منها ، ولعقائد الدين وعباداته وآدابه وحلاله وحرامه أبواب معروفة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولأصول تشريعه السياسى أبواب من النصوص والاجتهاد معروفة أيضاً ، فما اعتيد فى هذه القرون الأخيرة من قراءة صحيح البخارى فى المساجد لأجل النصر على الأعداء مخالف لهذه القاعدة ، وليس من المخالف لها الدعاء وتوجه المقاتلة إلى الله لنصرهم بعد إعداد ما استطاعوا من القوة لعدوهم ، فإن الدعاء من أسباب القوة المعنوية

(القاعدة العشرون) حرية الدين والاعتقاد ومنع الاضطهاد الدينى ولو بالقتال حتى يكون الدين كله لله ومنع الإكراه على الدين . وذلك قوله تعالى (١٩٣ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة و يكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)

الفتنة اضطهاد الإنسان لأجل دينه بالتعذيب والقتل والنفى كما فعل المشركون بالمسلمين فى صدر الاسلام ولذلك قال فى آيات القتال التى نزلت قبل هذه فى سورة الحج (٢٢ : ٣٩ أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا ، و إن الله على نصرهم لقدير ٤٠ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) الخ

ولذلك مهد لهذه الغاية هنا بقوله قبلها (١٩١ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) ثم قفى عليها بقوله (٢١٧ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) الآية .

وأما النهى عن الإكراه فى الدين حتى الإسلام فقوله تعالى (٢٥٦ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) وقد ذكرنا فى تفسيرها مارواه المحدثون ومصنفوا التفسير المأثور من سبب نزولها .

وملخصه : أنه كان لدى بني النضير من يهود المدينة أولاد من أبناء الصحابة ربوهم وهودوهم فلما أمر النبي ﷺ باجلائهم لتواتر إيذائهم أراد المسلمون أن يأخذوا أبناءهم منهم ويكرهوهم على الإسلام فنزلت الآية . فقال النبي ﷺ «قد خير الله أصحابكم ، فإن اختاروهم فهم منهم ، وإن اختاروكم فهم منكم »

ومع هذه النصوص لايزال يوجد حتى فى المسلمين من يصدق افتراء أعداء الإسلام بأنه قام بالسيف والإكراه على الدين ، وأن النبى ﷺ هو الذى كان يبدأ المشركين بالقتال ؟

﴿ القاعدة الحادية والعشرون ﴾ أن القتال شرع فى الإسلام لمصلحتين أو ثلاث «الأولى» الدفاع عن المسلمين وأوطانهم ، فإن المشركين أخرجوا النبى ومن كان آمن معه من أهل مكة ثم بدأهم بالقتال وساعدهم عليهم أهل الكتاب ومازالوا يبدأونهم ويقاتلونهم حتى عجزوا ، وذلك قوله تعالى (١٩٠ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين) «الثانية» تأمين حرية الدين ومنع الاضطهاد فيه وهو قوله (١٩٣ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) هذا مانزل فى هذه السورة «الثالثة» مافى سورة التوبة من تأمين سلطان الإسلام وسيادته بدفع المخالفين له للجزية .

﴿القاعدة الثانية والعشرون﴾ أن من شأن المسلمين طلب ماهو أثر لازم للاسلام من سعادة الدنيا والآخرة معاً ، كما تقدم فى القاعدة الأولى ، وإنما تتحقق

الغايات ولوازم الأمور بطلبها والسعى لها .

فليس من هديه أن يترك المسلمون الدنيا ومعايشها وسياستها ويكونوا فقراء أذلاء ، تابعين للمخالفين لهم من الأقوياء - ولا أن يكونوا كالأنعام لاهمَّ لهم إلا فى شهواتهم البدنية ، وكالوحوش التى يفترس قويها ضعيفها . وهذا الجمع بين الأمرين مقتضى الفطرة ، والاسلام دين الفطرة ، وذلك هو ما أرشدنا الله إليه بقوله (٢٠٠ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ٢٠١ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) الخ

﴿القاعدة الثالثة والعشرون﴾ أن الأحكام الاجتهادية التى لم تثبت بالنص القطعى الصريح رواية ودلالة لاتجعل تشريعاً عاماً إلزامياً بل تفوض إلى اجتهاد الأفراد فى العبادات الشخصية والتحريم الدينى الخاص بهم - وإلى اجتهاد أولى الأمر من الحكام وأهل الحل والعقد فى الأمور السياسية والقضائية والادارية ومأخذه آية (٢١٩ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) ووجهه : أن هذه الآية تدل على تحريم الخمر والميسر بضرب من الاجتهاد فى الاستدلال ، وهو أن ما كان إثمه وضرره أكبر من نفعه فهو محرم يجب اجتنابه ، وذلك مافهمه بعض الصحابة فامتنعوا من الخمر والميسر . ولكن النبى ﷺ لم يلزم الأمة هذا ، بل أقر من تركهما ومن لم يتركهما على اجتهادهما إلى أن نزل النص القطعى الصريح فى تحريمهما والأمر باجتنابهما فى سورة المائدة فحينئذ بطل الاجتهاد فيهما ، وأهرق كل واحد من الصحابة ماكان عنده من الخمر وصار النبى ﷺ يعاقب من شربها .

وبناء على هذه القاعدة كان يعذر كل أحد من سلف الأمة من خالفه أو خالف بعض الأخبار والآثار الاجتهادية غير القطعية رواية ودلالة ، ولم يوجبوا على أحد أن يتبع أحداً فى اجتهاده كما يفعل الخلف المقلدون .

وبناء على هذه القاعدة لم يقبل الإمام مالك رحمه الله تعالى من المنصور أولا ولا من هارون الرشيد ثانياً أن يحمل المسلمين على العمل بكتبه ولا بالموطأ الذى هو أصح ماروى من الأخبار المرفوعة وآثار الصحابة وواطأه عليه جمهور من علماء عصره

﴿القاعدة الرابعة والعشرون — إلى السابعة والعشرين﴾ بناء أمور الزوجية والبيوت وتربية الأولاد على أربع دعائم :

(١) قيام النساء بالأمور التي تقتضيها وظيفتهن كالرضاعة وغيرها من أمور تربية الأطفال ، ويقوم الزوج بالنفقة كلها

(٢) أن لايكلف كل منهما ماليس فى وسعه مما يدخل فى حدود وظيفته والواجب عليه

(٣) لايضار أحد منهما بالولد، ولا بغيره بالأولى ، والمضارة دون تكليف ما ليس فى الوسع

(٤) ابرام الأمور غير القطعية بالتراضى والتشاور

وهذه القواعد ظاهرة صريحة فى آية (٢٣٣ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لاتكلف نفس إلا وسعها، لاتضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك، فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلاجناح عليهما) ولو عمل المسلمون بهذه القواعد وأمثالها من أحكام الكتاب والسنة لكانوا أسعد الأمم فى بيوتهم ، ولما وجد من أعدائهم ولامن زنادقتهم من يهذى باسناد ظلم النساء إلى الاسلام ، أو حاجة المسلمين إلى تقليد غيرهم فى شىء من اصلاح البيوت (العائلات)

﴿القاعدة الثامنة والعشرون﴾ جعل سد ذرائع الفساد والشر وتقرير المصالح و إقامة الحق والعدل فى تنازع الناس بعضهم مع بعض — مناطا للتشريع وأصلا من أصول الأحكام الاجتهادية ، وذلك أن الله تعالى علل به شرعه للقتال، ومنته على نبيه داود وجنده بالنصر على عدوهم، وماترتب عليه من إيتائه الحكم والنبوة إذ قال (٢٥١ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين) وفى معناه تعليل الاذن للمسلمين فى القتال أول مرة بآيات سورة الحج التى استشهدنا بها فى القاعدة العشرين (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)

وما هنا أعم ، لأنه يشمل درء هذه المفسدة فى الدين وغيرها من الفساد الدينى والدنيوى ، وهو المتأخر فى النزول

(القاعدة التاسعة والعشرون) أن الايمان بلقاء الله تعالى فى الآخرة والاعتصام بالصبر الذى هو من أركان البر وكماله من ثمرات الايمان سببان من أسباب نصر العدد القليل على العدد الكثير وذلك قوله عز وجل (٢٥٠ قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

﴿ القاعدة الثلاثون ﴾ تحريم أكل أموال الناس بالباطل فى «آية ١٨٨» وهى أصل لكل المحرمات ومن أدلتها تعليل تحريم الربا بعد الأمر بترك ما كان باقياً لأصحابه منه لدى المدينين بقوله تعالى (٢٨١ فان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) فان الذى كان يقرض المحتاج بالربا إلى أجل اذا حل قال له : إما أن تقضى وإما أن تربي . فان لم يجد ما يقضى به أنبأ له فى الدين إلى أجل آخر بمثل الربا الأول فاذا حل الأجل الثانى قال له . إما أن تقضى وإما أن تربى — وهلم جرا — فكل ما يأخذه من هذه الزيادات باطل لا مقابل له وهو ظلم . وأما العقود والمعاملات التى لا ظلم فيها بأكل مال أحد المتعاقدين بالباطل فليست من الربا

﴿ القاعدة الحادية والثلاثون ﴾ أن عمل كل إنسان له أو عليه لا يجزى إلا به ولا يجزى به سواء ، فلا ينفعه عمل غيره ولا يضره ، وذلك قوله تعالى فى خاتمة هذه السورة « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ويعززها قوله تعالى فى الآية التى وردأنها آخر آية نزلت من القرآن ، وأمر النبى ﷺ وضعها بعد آيات الربا من هذه السورة وهى (٢٨١ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وان لم ترد بصيغة الحصر ، وفيه آيات كثيرة . فقد سبق بيان هذه القاعدة من قواعد العقائد فى بعض السور المكية التى نزلت قبلها ، كقوله تعالى فى سورة النجم (٥٣ : ٣٨ ألاّ تزر وازرة وزر أخرى ٣٩ وأن ليس للانسان إلا ماسعى) الخ وكقوله فى سورة الانعام (٦ : ١٦٥ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) ويجد القارىء فى تفسير هذه الآية من الجزء الثامن ما يؤيد هذه القاعدة من الشواهد وما جعلوه معارضاً لها مخصصاً لعمومها

من انتفاع الميت والحى بعمل غيره وما يصح منه وما لا يصح ، وكون الصحيح منه لا ينافى عموم القاعدة

(القاعدة الثانية والثلاثون) بيان بطلان الشفاعة الوثنية التى كانت أساس شرك العرب ومن قبلهم وهى التقرب إلى غير الله تعالى بالدعاء وغيره ليشفعوا لهم عند الله تعالى فيكشف مابهم من ضر ، ويؤتيهم ما طلبوا من نفع ، وزاد عليهم مشركو أهل الكتاب والمؤمنين بالبعث الاعتماد على الشفعاء بالنجاة من عذاب الآخرة قال تعالى(١٠:١٨ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) الآية وقد نفى الله تعالى هذه الشفاعة بقوله من هذه السورة خطابا لهذه الأمة (٢٥٣ يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقوله فى خطاب بنى إسرائيل (٤٧ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون)وفى معناها آية ١٢٢ . وأما الشفاعة الثابتة فى الأحاديث فهى غير هذه ولا تنافى التوحيد وكون الشفاعة لله جميعا وسيأتى بيانها

(القاعدة الثالثة والثلاثون) بناء أصول الدين فى العقائد وحكمة التشريع على إدراك العقل لها واستبانته لما فيها من الحق والعدل ومصالح العباد ، وسد ذرائع الفساد ، والشاهد عليه من هذه السورة قوله تعالى فى الاستدلال على توحيده بآياته فى السموات والأرض وما بينهما (١٦٤ إن فى خلق السموات والأرض ـ إلى قوله ـ لآيات لقوم يعقلون) ثم قوله فى إبطال التقليد (١٧٠ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟) وكذلك قال تعالى بعد ذكر طائفة من الأحكام العملية (٢٤٢ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون)

﴿ يقول محمد رشيد ﴾ هذا مافتح الله به علىّ بتصفح صحائف السورة دون تلاوتها ، ويمكن الزيادة عليه بالتأمل فيها وتدبرها ، وإنما وعدنا بتلخيصها بالاجمال دون التفصيل ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل :